

١١



ما الإنسان

تأليف: مارك توين
تعريب: أنور عمر

إهـــــداء2005

الأستاذ الدكتور / احمد حمدي محمود

القاهرة

لجنة التأليف والترجمة والنشر

سلسلة الفكر الحديث

ما الإنسان

تأليف: مارك توين
تعريب: أنور عمر

العدد الحادى عشر
ص ١٤

فهـــرس

مقدمة المؤلف

بدأت الدراسة من أجل كتابة هذه الأوراق منــذ خمس وعشرين أو سبع وعشرين سنة . وكتبتها منذ سبع سنين ، وقد راجعتها منذ ذلك الحين مرة أو مرتين كل عام ، وفى كل مرة كنت أشعر نحوها بالرضى ، وهأنذا أرجع إليها مرة أخيرة ولا أزال راضياً عما تعبر عنه من حقيقة .

وكل فكرة تشملها هذه الأوراق سبق أن فكر فيها (بل وقبلها كحقيقة لا جدال فيها) ملايين من البشر — ولكنهم كانوا دائماً يعمدون إلى إخفائها مع الاحتفاظ بها كعقائد شخصية ، ولماذا لم يصرحوا بها ؟ لأنهم كانوا يخافون نقد الناس حولهم ولا يقدرون على احتمال ذلك النقد ، ولماذا لم أنشرها أنا من جانبي ؟ لقد منعني نفس السبب على ما أظن . لا يمكنني أن أجد سبباً آخر .

مارك توين

فبراير سنة ١٩٠٥

الفصل الأول

(ا) الآلة البشرية (ب) القيمة الشخصية

"الشاب والشيخ يتحادثان من مدة . الشيخ يؤكد أن الإنسان لا يعدو أن يكون آلة ، الشاب يعارض ويسأله أن يتكلم بشيء من التفصيل ويبين الأسباب التي بنى عليها موقفه" .

الشيخ : ما هي المواد التي تصنع منها آلة بخارية ؟

الشاب : الحديد والفولاذ والنحاس والممدن وهكذا .

الشيخ : وأين توجد كل هذه المواد ؟

الشاب : في الصخور .

الشيخ : في حالة نقاء ؟

الشاب : لا بل مختلطة بالصخور .

الشيخ : هل أودعت المعادن فجأة داخل الصخور ؟

الشاب : كلا بل هي عملية بطيئة متناهية في البطء خلال أجيال لا تحصى .

الشيخ : وهل كان بإمكانك أن تصنع الآلة من الصخور نفسها ؟

الشاب : نعم . ولكنها في هذه الحالة تكون آلة رديئة عديمة القيمة . . . أو . . . . لا . . . بالفعل لا شيء .

الشيخ : وماذا يجب أن تفعل لكي تخرج آلة قوية صالحة للعمل ؟

الشاب : نحفر مناجم في التلال ونقطع منها الصخر المشتمل على عناصر

الحديد . ثم نسحقه فنصهره ونحيله فى النهاية إلى سبائك حديدية . ثم نجرى عملية بسمر على بعض منه فيستحيل فولاذاً. ثم نستخرج ونستخلص ونخلط المعادن المتعددة التى يصنع منها النحاس الأصفر . . .

الشيخ : ثم ؟

الشاب : من النتيجة النهائية نبنى الآلة الصالحة .

الشيخ : هل تنتظر الشيء الكثير من هذه الآلة ؟

الشاب : نعم . . . بدون شك .

الشيخ : أظنها تقدر على إدارة العجلة والمثقاب والمسحاة وغيرها من الآلات الدقيقة التى نصادفها فى مصنع كبير ؟

الشاب : نعم . يمكنها كل هذا .

الشيخ : أى عمل كان يمكن أن تؤديه الآلة الصخرية ؟

الشاب : لعلها تدير « ماكينة خياطة » — لا أعتقدها قادرة على أكثر من ذلك .

الشيخ : هل يعجب الناس بالآلة الأخرى ويمدحونها فى كثير من التحمس ؟

الشاب : نعم . . .

الشيخ : وهل يعجبون بآلة صخرية ؟

الشاب : كلا .

الشيخ : هل قيمة الآلة المعدنية تفوق كثيراً قيمة الآلة الحجرية ؟

الشاب : بالطبع .

الشيخ : أهى قيمة شخصية ؟

الشاب : قيمة شخصية ! ما ذا تعنى ؟

الشيخ : هل لها الحق فى أن تفخر بما تقوم به باعتباره مقدرة شخصية ؟

الشاب : الآلة . . لا بالطبع .

الشيخ : ولم لا ؟

الشاب : لأن عملها ليس شخصياً ، بل هو نتيجة لقانون بنائها . ليس من دواعى فخرها أن تقوم بعمل صنعت من أجـل القيام به لا تملك أن تمتنع عن القيام به .

الشيخ : وليس من دواعى الانتقاص من القيمة « الشخصية » للآلة الحجرية أنها تؤدى عملا ضئيلا ؟

الشاب : بالطبع لا . فهى لا تعمل أكثر ولا أقل مما تفرضه عليها القاعدة التى صنعت بمقتضاها ؛ ليس هناك شىء شخصى فى الموضوع؛ وليس للآلة أن تختار ، ولـكن هل تقصـد من هذه المحاورة أن تصل إلى افتراض أن الإنسان والآلة متشابهان ؛ وأن ليست هناك قيمة شخصية لما يقوم به كل منهما ؟

الشيخ : نعم — ولـكن أرجو المعذرة ، فأنا لا أقصد الإساءة ، ما الفرق الأول بين الآلة الحجرية والآلة الحديدية ؟ هل نسميه التدريب والتربية ؟ هل نسمى الآلة الحجرية إنساناً متوحشاً والآلة الحديدية إنساناً متمديناً ؟ فالصخور الأصلية كانت تشتمل على المادة التى صنعت منها الآلة الحديدية ولـكن بجانب هذه المـادة اشتملت على الـكثير من الـكبريت والحجر ومواد أخرى غريبة موروثة من العصور الجيولوجية — ولنسم هـذه الأخيرة شوائب فاسدة ، شوائب لم يكن لأى عنصر من عناصر الصخر نفسها القدرة ولا الرغبة فى استبعادها ، هل لك أن تدون هذه الجملة الأخيرة ؟

الشاب : نعم كتبتها « شوائب فاسدة لم يكن لأى عنصر من عناصر الصخر نفسها القدرة ولا الرغبة فى استبعادها » . . . . استمر .

الشيخ : شوائب فاسدة يجب استبعادها بفعل مؤثر خارجي وإلا كان استبعادها مستحيلا . دون هذه الجملة أيضاً .

الشاب : حسـنا . . . « يجب استبعادها بفعل مؤثر خارجي وإلا كان استبعادها مستحيلا » . . . . استمر .

الشيخ : . . . . الطبيعة الفاسـدة هي التي تمنع الحديد من التخلص من الصخور التي تضعفه ، أو بعبارة أوضح . . . « عدم المبالاة » من جانب الحـديد سواء استبعد الصخر أم لم يستبعد . ثم يأتي المؤثر الخارجي ويطحن الصخر فيحيله مسحوقا ، فيتحرر الحـديد الخام ، ولـكنه في هذه الحالة لم يزل مشوبا بمواد غريبة ، فلا بد من مؤثر خارجي يصهر المسحوق ليخلص المعـدن من شوائبه فيغدو إذن متحرراً من عبئها ، ولـكنه ما زال غـير مبال بأى تقدم جديد . فيأتي مؤثر خارجي آخر ويدفع به إلى أتون « بسمر » وما يزال به يهذبه حتى يحيله صلباً من أجود الأنواع . لقد تم تهذيبه الآن . . . لقد وصل إلى أبعد مدى يمكن أن يصل إليـه ، فليس هناك احتمال لوجود أية عملية جديدة تهذبه فيصبح ذهباً . هل لك أن تسجل هذه الفكرة أيضاً .

الشاب : نعم — « كل شيء له حدود » . . . لا يمكن تهذيب الحديد فيصبح ذهباً .

الشيخ : هناك رجال من ذهب ، ورجال من صفيح ، ورجال من نحاس ، وآخرون من رصاص وغيرهم من صلب وهكذا — وكل منهم له حدوده الطبيعية ، له صفاته الموروثة ، له تدريبه وله بيئته ، ويمكنك أن تبني الآلات من كل معدن من هذه المعادن ، وكل آلة منها سوف تعمل ؛ ولـكن عليك ألا تطالب الضعيف منها أن يقوم بعمل مساو لعمل

القوى ، وفى كل حالة لـكى تحصل على أحسن النتائج عليك أن تخلص المعدن من عناصر الفساد التى تشوب نقاءه — بالسحق والصهر والتنقية وهكذا . . .

الشاب : هل وصلت إلى الإنسان الآن ؟

الشيخ : الإنسان الآلى — الآلة البشرية ، آلة مجردة عن فكرة الشخصية ، فأيا كان حال إنسان فهذا يرجع قبل كل شىء إلى «معدنه» وإلى المؤثرات التى تؤثر فى هذا المعدن من بقايا وراثية وبيئة وروابط ، ليس هناك غير المؤثرات الخارجية وحدها تدفعه وتوجهه وتسيطر عليه ، هو لا ينتج شيئاً جديداً بالمرة ، لا يبتكر ولو فـكرة .

الشاب : مهلا ، مهلا ، من أين إذن جاءتنى الفكرة بأن ماتقوله هراء ؟

الشيخ : هذه فـكرة طبيعية جداً — فى الواقع فـكرة لا يمكنك تلافيها . ولـكنك لم تخلق العناصر التى تكونت منها فـكرتك ، بل هى أشتات أفكار وإحساسات جمعت بشكل لا شعورى من ألف كتاب ، وألف حديث ؛ جمعت من تيارات من الفكر والشعور سرت إلى عقلك وقلبك من عقول وقلوب أجيال من أسـلافك ، فأنت لم تخلق بمجهودك « الشخصى » أدق ولا أصغر ذرة من ذرات العناصر التى تكونت منها فـكرتك ؛ وليس لك أن تدعى أن لك مقدرة شخصية (بالغة ما بلغت من الضآلة) تمكنك من وضع العناصر المستعارة جنباً إلى جنب ؛ فقد تم ذلك بشكل « أوتوماتيكى » . هو من فعل الآلة العقلية إذ يتفق عملها اتفاقا تاماً مع القاعدة التى صنعت بمقتضاها . فلا يقتصر عجزك على أنك لم تصنع الآلة بنفسك ، بل أنت لا تملك أن تسيطر عليها بحال من الأحوال .

الشاب : هذا كثير ، هل تعتقد أنه لم يكن بمقدورى أن أكون غير هذه الفكرة ؟

الشيخ : من تلقاء نفسك ؟ لا . وأنت لم تكون هذه الفكرة بالذات ، وإنما آلتك العقلية عملت ذلك من أجلك ، بشكل «أوتوماتيكى» ، بشكل مباشر ، بدون تفكير وبدون الحاجة إلى تفكير .

الشاب : إذا فرضنا أنى فكرت فماذا يحدث ؟

الشيخ : تعنى إذا فرضنا أنك حاولت ؟ . . . . حاول .

الشاب : (بعد ربع ساعة) لقد فكرت .

الشيخ : تقصد أنك حاولت أن تغير رأيك . . . على سبيل التجربة ، أليس كذلك ؟

الشاب : نعم . . .

الشيخ : هل نجحت ؟

الشاب : لا ، بل ظل رأيى كما هو ومن المستحيل تغييره .

الشيخ : يؤسفنى ذلك ولكنك ترى بنفسك أن عقلك ليس إلا آلة . ليست لك سيطرة عليه وليست له سيطرة على نفسه ، وإنما هو يدار بفعل مؤثرات خارجية . هذه هى القاعدة التى صنع بمقتضاها ، وهى القاعدة فى كل آلة . .

الشاب : ألا يمكننى بحال تغيير رأى من هذه الآراء «الأوتوماتيكية» ؟

الشيخ : لا يمكنك أن تفعل ذلك بنفسك ، ولكن المؤثرات الخارجية يمكنها .

الشاب : مؤثرات خارجية فقط ؟

الشيخ : نعم خارجية فقط .

الشاب : هذا رأى لا يمكن التمسك به — رأى مضحك .

الشيخ : ما ذا يجعلك تظن ذلك ؟

الشاب : أنا لا أظن ، أنا أعلم ، لنفرض أنى عزمت على بدء مرحلة من التفكير والدراسة مع توافر النيـة على أن أغير رأيى ، ولنفرض أنى نجحت ، فليس هذا نتيجة مؤثر خارجى بل كل المرحلة مرحلتى أنا . هى مجهود شخصى ، لأنى خلقت المشروع .

الشيخ : لم تخلق منه شيئاً ، بل نبت من هذا الحديث بينى وبينك . وبدون هذا الحديث ما كان له أن يطرأ لك على بال ؛ فما من إنسان يخلق شيئاً ؛ كل أفكاره وكل دوافعه تأتى من الخارج .

الشاب : هذا موضوع متعب . أول إنسان كانت أفكاره من خلقه على كل حال ، لم يكن هناك من ينقل عنه .

الشيخ : أخطأت — أفكار آدم أتت له من الخارج ، أنت تخشى الموت ، أنت لم تخترع هـذا الخوف ؛ وإنمـا أتاك من الخارج ، من الحديث والتعليم . أما آدم فما كان يخشى الموت بالمرة .

الشاب : لا ، بل كان يخشاه .

الشيخ : فى أول خلقه ؟

الشاب : لا .

الشيخ : متى إذن ؟

الشاب : حين هدد بالموت .

الشيخ : إذن فالخوف أتى من الخارج . إن لآدم قدره ومكانته وهما عظيمان ؛ ولـكن ليس لنا أن نجعل منه إلهاً ؛ فمـا من أحد (غير الآلهة) أمكنه تكوين فكرة لم تأته من مصدر خارج عن نطاق نفسه . لعل عقلية آدم كانت عديمة الفائدة بالنسبة له حتى ملئت من الخارج ؛ ما كان بمقدوره

أن يخترع أتفه الأشياء بواسطتها ؛ ما كان لديه ظل من المعرفة بالفرق بين الخير والشر بل كان عليه أن يأتى بالفكرة من الخارج ؟ فلا هو ولا حواء كان يمكنهما أن يخلقا الفكرة بأن سيرهما عاريين عمل فاضح ، وإنما اتتهما المعرفة من التفاحة . . . من الخارج أيضاً .

عقل الإنسان مبنى بطريقة لا يقدر معها على خلق شيء بالمرة . هو لا يمكنه إلا استخدام مواد حصل عليها من الخارج . هو ليس إلا آلة وهذه الآلة تعمل بشكل « أوتوماتيكى » ، وليس بفعل الإرادة . ليس للعقل سيطرة على نفسه وليس لصاحبه سيطرة عليه .

الشاب : حسناً ! لندع آدم جانباً ، ولكن الخلق عند شكسبير .

الشيخ : لا . . . بل أنت تقصد النقل عند شكسبير . شكسبير لم يخلق شيئاً ، هو شاهد بدقة ورسم بمهارة ، فنجح فى تصوير أناس خلقهم الله ولكن الشاعر لم يخلق أحداً بنفسه . دعنا نوفر عليه اتهامنا له بمحاولة الخلق لأن شكسبير لم يكن باستطاعته أن يخلق وإنما كان آلة — والآلات لا تخلق .

الشاب : فى أى ناحية كان امتيازه إذن ؟

الشيخ : فى أنه لم يكن «ماكينة خياطة» مثلك ومثلى بل كان أشبه بمنسج « جوبلين » أتت له الخيوط الملونة من الخارج ، ثم عملت المؤثرات الخارجية من مقترحات وتجارب (من قراءة ومشاهدة مسرحيات ، واشتراك فى التمثيل ، واستعارة أفكار الغير وهكذا) كلها عملت على رسم تصميمات باهرة فى عقله ، ثم أدارت الآلة الدقيقة فأنتج بشكل «أوتوماتيكى» ذلك النسيج الفاخر المصور الذى ما زال يثير إعجاب العالم . فلو أن شكسبير ولد وربى فوق صخرة فى وسط المحيط لما وجد ذكاؤه

المفرط مواد خارجية يعمل بها ، إذ ليس باستطاعته أن يخلق مثل هذه المواد ؛ ولما وجد ذكاؤه مؤثرات خارجية ذات بال من تعاليم ومناقشات ومصادر وحى ، إذ ليس بإمكانه أن يخلق مثل هذه المؤثرات وعلى ذلك فشكسبير ما كان لينتج شيئاً ، ولو أنه عاش فى تركيا مثلا لكان ينتظر أن ينتج شيئاً ما — شيئاً يصل إلى أبعد حد تتسع له المؤثرات والارتباطات والنشأة فى تركيا . ولو أنه عاش فى فرنسا لأنتج شيئاً أحسن — شيئاً يصل إلى أبعد حد تتسع له المؤثرات والنشأة فى فرنسا . وفى انجلترا ارتفع إلى أسمى درجة أمكن الوصول إليها خلال المساعدة الخارجية التى تهيؤها المثل العليا والمؤثرات والنشأة ، ولكن أنت وأنا لسنا إلا « ماكينات خياطة » . ننتج ما نقدر عليه ؛ ونحاول ما يتسع له جهدنا ولا نهتم مطلقاً إذا عيرنا غبى بأننا لسنا من مناسج «جوبلين» .

الشاب : وعلى ذلك فما نحن إلا آلات ! والآلات قد لا تفخر أو تزهى بما تعمله ، ولا تطالب بتقدير شخصى لقيامها بهذا العمل ، ولا تبحث عن المدح والهتاف . لا ، هذه نظرية معيبة .

الشيخ : هى ليست نظرية بل مجرد حقيقة .

الشاب : على ذلك تظن أن ليس للشجاع قيمة أعظم من قيمة الجبان ؟

الشيخ : أتقصد « قيمة شخصية » كلا ، كلا ، الرجل الشجاع لا يخلق شجاعته ، وليس له أن يتمتع بتقدير شخصى لمجرد «امتلاكه» لشجاعته وهو يولد مالكا لها . فعلى فرض أن طفلا ولد مالكا لثروة تبلغ ألف مليون دولار ، فأين القيمة الشخصية فى ذلك ؟ وعلى فرد أن طفلا ولد معدماً فأين النقص الشخصى فى ذلك ؟ ومع هذا فأولهما يصير موضعاً للتدليل والإعجاب بل والعبادة من جانب المتطفلين ، بينما يهمل الثانى ويحتقر ، فأى حكمة تراها فى هذا ؟

الشاب : قد يحدث أحياناً أن يتولى جبان مكافحة جبنه فينجح فيغدو شجاعاً ، فهل ترى لذلك معنى ؟

الشيخ : مثل هذا العمل يبين تغلب أثر « التدريب فى اتجاه سليم » على « التدريب فى اتجاه خاطىء » . فالتدريب والتربية والمؤثر الخارجى إذا اتجهت فى اتجاهات طيبة تنتج آثاراً قد نعجز عن تقدير مدى قيمتها . أقصد بذلك تدريب الإنسان على السمو بمثله العليا حتى يصبح رضاه عن نفسه مرتبطا بهذه المثل .

الشاب : وهل تنكر القيمة الشخصية للجبان بعد أن قرر مكافحة جبنه فحاول ونجح ؟

الشيخ : ليس هناك شىء من هذا لقد غدا فى نظر العالم إنسانا أصلح مما كان من قبل . ولكنه لم يحقق هذا النجاح المنسوب إليه ، ليست قيمة العمل راجعة إليه .

الشاب : فإلى من ترجع إذن ؟

الشيخ : إلى تكوينه وإلى المؤثرات التى أتت من الخارج فشكلت هذا التكوين .

الشاب : تكوينه ؟

الشيخ : نعم . فهو أولاً لم يكن جبانا بشكل تام أو ميئوسا منه وإلا فما كانت المؤثرات لتجد المادة الصالحة للتشكيل ؛ فلعله ما كان يخشى أن يواجه بقرة برغم أنه قد يخاف ثوراً ؛ ولعله ما كان يخاف امرأة بقدر بقدر ما يخاف رجلا ؛ أى أنه كان هناك أساس ييسر له البناء ؛ كانت هناك بذرة . فإن انعدمت البذرة انعدم النبات . فهل صنع هذه البذرة بنفسه أو أنها ولدت معه ؟ ليس مجرد وجود البذرة من دواعى التقدير لشخصه .

الشاب : ولـكن على كل حال كانت فـكرة إنماء هذه البذرة والتصميم على هذا الإنماء — كل ذلك كان جديراً بالتقدير وهو صاحب الفضل فيه .

الشيخ : هو لم يفعل شيئا من هذا ففكرة الإنماء هذه أتت من الخارج ، أتت من حيث تأتى كل المؤثرات — سواء أكانت طيبة أم رديئة ، فلو أن هذا الجبان عاش طيلة حياته فى مجتمع من الجبناء ، لو أنه لم يقرأ عن أعمال البطولة ولم يسمع من يتحدثون بها ، لو أنه لم يسمع أحداً يمدح الأبطال ويغبطهم على ما قاموا به لانعدمت لديه فكرة الشجاعة بقدر انعدام فكرة الحياء عند آدم ، ولما بدا له بالمرة أن يصمم على أن يصبح شـجاعا . لم يكن باستطاعته أن يخلق الفـكرة — بل كان لا بد لها من أن تأتيه من الخارج ، وعلى ذلك فحين سمع مدح الشـجاعة والسخرية من الجبن أيقظه ما سمع ، شعر بالخجل من نفسه ، بل لعل حبيبته شمخت بأنفها وقالت « يقال لى إنك جبان ! » لم يكن هو الذى قلب الصحيفة الجديدة ، بل فعلت هى ذلك من أجله ، ليس له أن يختال معتداً بقدره فهو فى ذلك إنما يعتد بما ليس له .

الشاب : ولـكنه على كل حال تعهد النبات بعد أن روت هى البذرة .

الشيخ : لا بل تعهدته المؤثرات الخارجية : فعند صدور الأمر سار إلى الميدان (وهو يرتجف) مع جنود آخرين ، وفى وضح النهار لم يكن وحده ولم يكن فى الظلام ، كان المؤثر الخارجى هنا هو « القدوة » . استمد شجاعته من شجاعة زملائه ، كان خائفاً ، ولعله فـكر فى الفرار ، ولـكنه لم يجرؤ . . . فقد خشى أن يفر بينما كل هؤلاء الجنود يشهدون فراره ، ألا ترى معى أنه قد تقدم نوعاً ما ؟ لقد سما الخوف الأخلاقى فوق الخوف الجسمى ، سما الخوف من العـار فوق الخوف من الخطر ، وفى نهاية

الهجوم يكون قد تعلم بالتجربة أن ليس كل من يدخل المعركة يصاب — وهذا مؤثر أخلاقى آخر سوف ينفعه فيما بعد — ويكون قد عرف حلاوة المدح « لشجاعته » وحلاوة الهتاف الذى تخنقه العبرات حين تمر الفرقة التى أنهكتها الحرب أمام جماهير تحمل لها أسمى معانى الإجلال : بين رايات تنشر ، وطبول تدق ، بعد هـذا كله سوف يصبح له من الشجاعة مثل ما لأقدم محارب فى الجيش ، ومع ذلك فلا يمكن أن تدعى أن عمله يشتمل على أدنى ظل « للقيمة الشخصية » . لقد أتى كله من الخارج ، وإن صليب فيكتوريا يخلق من الأبطال أكثر مما . . . . .

الشاب : ولـكن ما معنى أن يصير شجاعاً إذا لم تنله شجاعته تقدير الغير ؟

الشيخ : سوف يتولى سؤالك الإجابة عن نفسه ، فهو يفتح المجال للحديث عن عنصر دقيق وهام يدخل فى تكوين الإنسان — عنصر لم نشر إليه بعد

الشاب : وأى عنصر هذا ؟

الشيخ : هو الدافع الذى يحمل شخصاً على أن يقوم بما يقوم به من أعمال ؛ هو الدافع الوحيد الذى يحرك أى فرد ليعمل أى شىء .

الشاب : الوحيد ! أليست هناك دوافع أخرى ؟

الشيخ : لا بل هو كل شىء ، فليس هناك أكثر من دافع واحد .

الشاب : حسناً ، هذا اعتقاد غريب بعض الشىء ، وما هو إذن ذلك الدافع الوحيد الذى يتولى تحريك كل فرد حتى يقوم بأى عمل من أعماله ؟

الشيخ : هو « الرغبة فى أن يرضى نفسه » هو ضرورة إرضاء الذات حتى ينال موافقتها على ما يعمل .

الشاب : لا ، لا . هذا كلام غير مقنع .

الشيخ : لمـاذا ؟

الشاب : لأن مثل هـذا الدافع سوف يضعه دائماً فى موقف الباحث عن الراحة والكسب ، بينما الإنسان غير الأنانى غالباً ما يقوم بأعمال لاتعود بالنفع إلا على غيره . . وهى فى نفس الوقت توقع به ضرراً مؤكداً .

الشيخ : هذا خطأ . فأعماله لا بد أن تحقق الخير له أولا وقبل كل شىء ، وإلا امتنع عن أدائها ، قد يعتقد أنه إنما يؤديها لصالح غيره ولكن الحقيقة غير ذلك فهو إنما يرضى نفسه أولا — أما مصلحة الشخص الآخر فلابد لها من أن تتخذ مكاناً ثانوياً .

الشاب : يالها من فكرة خيالية ! وما مصير التضحية بالنفس إذن ؟ أرجوك أن تجيب عن هذا السؤال .

الشيخ : ما هى التضحية بالنفس ؟

الشاب : هى أن تعمل الخير لغيرك فى الوقت الذى لا يمكن أن ينتج عن هذا العمل أى ظل من المنفعة لنفسك .

الفصل الثانى

الدافع الوحيد للانسان – ضمان إرضاء الذات

الشيخ : هل تعتقد بوجود أمثلة للتضحية بالنفس ؟

الشاب : أمثلة ؟ هناك ملايين منها .

الشيخ : هل أنت واثق بأنك لم تتسرع فى الحكم عليها ؟ هل اختبرتها بدقة ؟

الشاب : لا يحتاج الأمر لاختبار ، فالأعمال نفسها تكشف عن الدافع النبيل المستتر وراءها .

الشيخ : مثال ذلك ؟

الشاب : حسناً – فلنضرب لذلك مثلا بالحالة المذكورة فى هذا الكتاب ، رجل يعيش على بعد ثلاثة أميال فى داخل المدينة ، البرد فى أقسى وأسوأ درجاته ، الثلج يتساقط بكثرة ، الوقت منتصف الليل ، هو يوشك أن يركب عربة حين تتقدم إليه عجوز تلبس أطماراً بالية وتتمثل فيها كل معانى البؤس ، فتمد يدها النحيلة طالبة الخلاص من الجوع والموت ، لا يحمل الرجل فى جيبه أكثر من ربع دولار ولكنه لا يتردد فى أن يعطيها إياه ويواصل السير إلى منزله خلال العاصفة . والآن ، أليس هذا نبيلا ؟ أليس هذا جميلا ؟ إن نقاء هذا العمل وجماله لا تشوبهما أقل شائبة من المصلحة الشخصية .

الشيخ : ما الذى يجعلك تعتقد ذلك ؟

الشاب : ماذا إذن يمكنني أن أعتقد غير ذلك ؟ هل تتصور أن هناك طريقة أخرى لتفسير هذا العمل ؟

الشيخ : هل يمكنك أن تضع نفسك فى مكان ذلك الرجل وتخبرنى بكل ما أحس به وفكر فيه ؟

الشاب : بمنتهى البساطة ، إن رؤية ذلك الوجه العجوز يغمره الشقاء أثار ألماً حاداً حز فى قلبه الكريم . فلم يستطع احتمال ذلك الألم ، كان بإمكانه أن يحتمل السير ثلاثة أميال فى العاصفة ، ولكنه ما كان ليحتمل عذاب ضميره لو أنه أدار ظهره وترك العجوز التعسة لتهلك ؛ ما كان ليستطيع النوم لمجرد التفكير فى قسوته .

الشيخ : ماذا كانت حالته النفسية فى طريقه لمنزله ؟

الشاب : كانت حالة فرح لا يعرفها إلا القادر على التضحية بنفسه ، كان قلبه يغنى ، لم يعد يحس بالعاصفة .

الشيخ : هل نام جيداً ؟

الشاب : لا يمكن أن نشك فى ذلك .

الشيخ : هذا شىء طيب جداً . والآن فلنجمع التفاصيل لنرى كم نال مقابل ربع الدولار الذى دفعه . . . . فلنحاول أن نجد السبب الحقيقى لدفع المبلغ . فهو أولا لم يقدر على احتمال الألم الذى سببه له ذلك الوجه العجوز المكتئب ، وإذن فقد كان يفكر فى ألمه هو . ولو أنه لم يحسن إلى المرأة العجوز لعذبه ضميره طول الطريق ، وهنا يفكر فى ألمه من جديد ، وعليه أن يشترى خلاصه من ذلك الألم ، ولو أنه لم يدفع ما دفعه لتلك البائسة لما استمتع بنعمة النوم ، إذن فعليه أن يشترى شيئاً من النوم — أى أنه ما زال يفكر فى نفسه . والخلاصة هى أنه

اشترى راحته من الألم الذى يحز فى قلبه ، واشترى راحته من عذاب ضمير لا يرحم ، واشترى نومه ليلا طويلا هادئاً . . . وكل ذلك بمبلغ خمسة وعشرين سنتا لاغير . إن مثل هذا المثال كفيل بأن يجعل شارع « وول » يخجل من نفسه . وفى طريقه لمنزله كان قلبه سعيداً ، بل كان قلبه يغنى . . . . وهذا ربح جديد فوق ما أسلفنا .

وإذن فالدافع الذى جعل الرجل يساعد المرأة العجوز كان أولا إرضاء مطالب نفسه وثانياً تخفيف آلام المرأة . فهل تعتقد أن أعمال الإنسان تصدر عن دافع مركزى واحد لايتغير ولا يمكن تغييره ، أم أنها تصدر عن مجموعة دوافع مختلفة .

الشاب : بالطبع تصدر عن مجموعة مختلفة — بعضها سام ونبيل وبعضها الآخر عكس ذلك . ماذا تعتقد ؟

الشيخ : بأن ليس هناك غير قانون واحد ؛ مصدر واحد .

الشاب : بأن أنبل الدوافع وأحقرها تصدر عن نفس ذلك المصدر .

الشيخ : نعم . .

الشاب : هل تسمح بذكر نص لهذا القانون ؟

الشيخ : نعم . هذا هو القانون . حاول أن تعيه فى ذاكرتك : « من المهد إلى اللحد لا يقوم الإنسان بأى عمل إلا ويكون الدافع إليه أولا وقبل كل شىء هو أن يضمن لذاته راحة البال واطمئنان النفس .

الشاب : هل معنى هذا أنه لا يقوم مطلقاً بأى عمل يقصد به راحة الآخرين الروحية أو الجسمية ؟

الشيخ : لا — إلا على أساس هذه الشروط الواضحة : وهى أن العمل يجب أن يضمن الراحة الفكرية له هو أولا . فإن لم يحقق له ذلك فلن يقوم به .

الشاب : إن من السهل إبراز نواحى النقص فى هذا القانون .

الشيخ : اضرب مثلا .

الشاب : خذ مثلا تلك العاطفة النبيلة ، حب الوطن فالرجل الذى يحب السلم ويخاف الألم يترك بيته المريح ، وأسرته من ورائه تبكيه ، ليخرج معرضاً نفسه للجوع والبرد والجروح والموت ، هل يفعل ذلك بحثاً عن راحة فكرية ؟

الشيخ : هل يحب السلام ويكره الألم ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : إذن لعل هناك شيئاً يحبه أكثر مما يحب السلام — وهذا الشىء هو رضاء جيرانه ورضاء الناس ، ولعل هناك شيئاً يخشاه أكثر مما يخشى الألم — وهذا الشىء هو « عدم الرضا » من جانب جيرانه ومن جانب الناس فلو كان حساساً يخشى العار لذهب إلى الميدان — لا لأن روحه سوف تتمتع براحة تامة هناك ، بل لأنها سوف تتمتع براحة أكثر مما لو بقى فى داره — سوف يعمل دائماً الشىء الذى يجلب له أكبر قسط من الراحة الفكرية . . . لأن هذا هو القانون الوحيد الذى تسير حياته بمقتضاه . هو يترك الأسرة تبكيه من خلفه ، يؤسفه أن يسبب لهم هذا الألم ، ولكنه لا يأسف إلى الحد الكافى لجعله يضحى براحته فى سبيل راحتهم . .

الشاب : هل تعتقد حقيقة أن مجرد رأى الناس يكفى لإجبار رجل جبان ومسالم على أن . . .

الشيخ : يذهب للحرب ؟ نعم — رأى الناس يمكنه أن يجبر بعض الأشخاص على فعل أى شىء .

الشاب : أى شىء ؟

الشيخ : نعم . أى شىء .

الشاب : أنا لا أصدق ذلك . هل يمكنه أن يجبر إنساناً ذا مبادىء سليمة على أن يرتكب خطأ .

الشيخ : نعم .

الشاب : هل يمكنه أن يجبر إنساناً رحيما على أن يرتكب عملا قاسياً .

الشيخ : نعم .

الشاب : اضرب مثلا .

الشيخ : كان الكسندر هاملتون رجلا ذا مبادىء قويمة يعتبر المبارزة عملا منكراً يتعارض مع تعاليم الدين ، ولكن نظراً لاهتمامه برأى الناس فيه فقد اشترك فى مبارزة ، كان يحب أسرته حباً عميقاً ، ولكن لكى يشترى رضا الجماهير هجر أسرته غدراً وخلسة وذهب ليفقد حياته تاركا أهله من بعده ليعانوا مرارة الأسى مدى الحياة . لم يكن لذلك كله ثمة داع إلا رغبته فى أن يظل عند حسن ظن عالم مخبول ؛ فبحسب مقاييس الشرف فى مجتمع ذلك العصر لم يكن باستطاعته أن يستمتع بالراحة الفكرية وقد علقت به وصمة رفض القتال ، فتعاليم الدين ، وحبه لأسرته ، وطيبة قلبه ومبادئه القويمة — كل هذه لم تجد نفعاً حين وقفت فى طريق راحة فكره ، وإن كل إنسان مستعد لأن يعمل أى شىء (مهما كان نوع هذا الشىء) ليظل محافظاً على راحة فكره ، ولا يمكن إجباره ولا إقناعه بحال ما على أن يقوم بعمل لا يتخذ من هذه الغاية هدفاً له . فعمل هاملتون كان الدافع إليه هو تلك الضرورة الفطرية لإرضاء نفسه ، وهو فى ذلك يشبه كل عمل آخر قام به فى

حياته ، بل ويشبه أعمال جميع الناس خلال حياة كل فرد منهم من أقصاها إلى أقصاها . فهل ترى أين يوجد لب الموضوع ؟ ما من إنسان يمكنه أن يحيا فى راحة بدون « رضا نفسه عن نفسه » . فهو يحاول الاحتفاظ بأكبر نصيب من هذا الرضا بأى ثمن وبأية تضحية .

الشاب : لقد ذكرت منذ لحظة أن هاملتون اشترك فى هذه المبارزة لكى يحصل على رضا الناس .

الشيخ : نعم . قلت ذلك . فلو أنه رفض المبارزة لحصل على رضا أهله وعلى جزء كبير من رضا نفسه ، ولكن رضا الناس كان فى نظره أكبر قيمة من كل ما عداه سواء فى الأرض أم فى السماء ، فالحصول على رضا الناس سوف يعده بأكبر قسط من راحه الفكر ، أى بأكبر قسط من رضاه عن نفسه ، وعلى ذلك ضحى بكل القيم الأخرى ليحصل على هذه الراحة وهذا الرضا .

الشاب : لقد رفضت نفوس نبيلة أن تشترك فى مبارزات وواجهت احتقار الجماهير بجرأة ورجولة .

الشيخ : تصرفوا بما يتناسب مع تكوينهم ، كان لمبادئهم ولرضا عائلاتهم قيمة تفوق رضا الجماهير — أخذوا الشىء الذى يتمتع بأكبر قدر من الاعتبار فى نظرهم ، وتركوا ما عداه ، أخذوا الشىء الذى يعطيهم أوفر قسط من الراحة والرضا الشخصى ، والإنسان يفعل ذلك دائماً ، لا يمكن لرأى الناس أن يجبر مثل هؤلاء الأشخاص على الذهاب إلى الحروب ، وحين يذهبون فإنما يكون ذلك لأسباب أخرى . . . أسباب أخرى لإرضاء النفس .

الشاب : أهى دائماً أسباب لإرضاء النفس ؟

الشيخ : نعم ، فليس هناك غير هذا النوع من الأسباب .

الشاب : حين يضحى رجل بحياته لينقذ طفلا من بناء يحترق فماذا تسمى ذلك ؟

الشيخ : حين يعمل هذا العمل فهو إنما يتبع قانون تكوينه ، هو لا يحتمل أن يرى الطفل فى هـذا الخطر (ولكن إنساناً من تكوين آخر قد يحتمل) وعلى ذلك يحاول أن ينقذ الطفل فيفقد حياته . . . ولكنه يكون قد نال ما أراد : « رضاه عن نفسه » .

الشاب : إذن فماذا تسمى الحب ، والكره ، والإحسان ، والانتقام ، والإنسانية ، والكرم ، والتسامح .

الشيخ : كلها نتائج مختلفة لدافع واحد مسيطر وهو ضرورة الحصول على رضا النفس ، فهى أشبه ما تكون بشخص واحد يرتدى أزياء مختلفة ويبدو فى حالات متباينة من وقت لآخر ، ولكن أياً كانت طريقة التخفى فالشخص هو هو دائماً لا يتغير ، وبعبارة أخرى فالقوة المسيطرة على تصرفات الإنسان — وليست له غير هـذه القوة — هى ضرورة تأمين راحته الروحية ولا تقف هذه القوة عن العمل إلا بوفاة الإنسان .

الشاب : هذا جنون . فالحب . . . . .

الشيخ : الحب هو هذا الدافع ، هو هذا القانون فى أقل حالاته قابلية للموارية أو التلاعب ، فالمحب يقف حياته كما يقف كل شىء آخر على من يحب ، ولكن من أجل من يفعل ذلك ؟ من أجل نفسه أولا وليس من أجل محبوبه ، فإن كان المحبوب سعيداً فهذا ضمان لسعادة المحب — وهذا بالضبط هو ما يبحث عنه (بشكل لا شعورى) من وراء حبه . السعادة لنفسه أولا .

الشاب : أنت لا تستثنى من هذا حتى عاطفة الأمومة تلك العاطفة السامية النبيلة ؟

الشيخ : لا فهى أكثر العواطف خضوعاً لذلك القانون . فالأم قد تعرى لتكسو طفلها ؛ وتموت جوعاً لكى ينال غذاءه ؛ وتتحمل العذاب لتنقذه من الألم ؛ بل وتقبل على الموت لتضمن له الحياة . هى تتلذذ لذة قصوى لقيامها بهذه التضحيات ؛ تعمل ما تعمله لتنال فى النهاية هذا الجزاء — تقدير الذات ، رضا النفس ، السلام ، الراحة . قد تعمل نفس الشىء من أجل طفلك أنت إذا أمكنها الحصول على نفس الثمن .

الشاب : يا لها من فلسفة ملعونة !

الشيخ : هى ليست فلسفة وإنما هى حقيقة .

الشاب : بالطبع يجب أن تعترف أن هناك أعمالا . . .

الشيخ : لا . فليس هناك عمل (سواء أكان كبيراً أم صغيراً ، عظيما أم حقيراً) يصدر عن غير هذا الدافع الوحيد — ضرورة إراحة النفس وإرضائها .

الشاب : ولكن أولئك الذين قاموا بأعمال البر لخدمة الإنسانية . . .

الشيخ . أنا أجلهم وأقوم نحوهم بفروض الاحترام بحكم العادة وبحكم التدريب ؛ ولكنهم هم أنفسهم ما كانوا ليعرفوا معنى الراحة أو السعادة أو رضا النفس إذا لم يعملوا وينفقوا من أجل البائسين . فإنما تسعدهم رؤية الآخرين سعداء وعلى ذلك يشترون ما يبتغون ، يشترون السعادة ورضا النفس بالمال والجهد . ولماذا لا يفعل البخلاء نفس الشىء ؟ لأن بإمكانهم أن يحصلوا على السعادة أضعافا مضاعفة من مجرد الإمتناع عن فعله ، ليس هناك سبب آخر فهم يتبعون قانون تكوينهم .

الشاب : ولكن ما رأيك فى القيام بالواجب من أجل الواجب ؟

الشيخ هذا شيء لا وجود له بالمرة . فالإنسان لا يقوم بالواجب من أجل الواجب ، ولكن لأن إهمال الواجب سوف يجعله غير مرتاح ، هو لا يقوم إلا بواجب واحد فحسب — واجب إرضاء النفس ، جعل نفسه مقبولا فى نظر نفسه . فإذا أمكنه أن يؤدى هذا الواجب الفرد بشكل مرضى عن طريق مساعدته لجاره فسوف يفعل ذلك ، وإن أمكنه أن يؤديه بشكل مرضى عن طريق الاحتيال على جاره فسوف يفعل ذلك أيضاً ، هو دائم البحث عن ذاته أولا ، أما عن أثر أعماله فى غيره فهذا أمر ثانوى ، قد يدعى الناس أنهم يضحون بأنفسهم ولكن أقول لك بصريح العبارة إن هذا شيء لم يحدث ولن يحدث . وغالباً ما يعتقد إنسان ما اعتقاداً راسخاً أنه قد يضحى بنفسه لمصلحة غيره وغيره فقط ، ولكنه مخدوع ، ففى أعماق كيانه يسيره دافع واحد يتلمس إرضاء حاجة فى طبيعته وفى تربيته ، لأنه بهذا الإرضاء يحقق سلام النفس .

الشاب : يبدو لى أنك تقصد أن تقول بأن كل الناس (من صلح منهم ومن فسد) يكرسون حياتهم لإرضاء ضمائرهم ؟

الشيخ : نعم . هذه تسمية طيبة . الضمير — ذلك الملك المستقل، ذلك الحاكم المستبد المطلق الذى يسيطر على الإنسان من الداخل . هناك ضمائر من كل نوع : فأنت ترضى ضمير السفاح بطريقة خاصة بينما ترضى ضمير رجل البر والإحسان بطريقة أخرى ، وضمير البخيل بطريقة ثالثة ، وضمير اللص بطريقة رابعة ، وهكذا ، وإذا أخرجنا « عنصر التدريب » من حسابنا يفقد الضمير قيمته كدليل يوجه الإنسان إلى أية ناحية أخلاقية بالذات .

فقد عرفت يوماً رجلا طيباً من سكان مقاطعة كنتكى كان ينقصه الشعور بالرضا عن نفسه —أو بعبارة أدق كان ضميره يعذبه— لا لشيء إلا لأنه فاته أن يقتل رجلا ما (هذا بالرغم من أنه لم ير ذلك الرجل فى حياته) . فقد سبق أن قتل ذلك الغريب صديقاً لصاحبنا فى مشاجرة ، وتقاليد كنتكى تحتم عليه من أجل ذلك أن ينتقم لصديقه . ولكنه أهمل واجبه — ظلّ يتحاشى القيام به ويتهرّب منه ويسوّفه بينما ضميره الذى لا يرحم ظل يناقشه الحساب على تصرفاته ، وأخيراً لكى يريح نفسه ، ظل يتحين الفرص حتى فاز بذلك الغريب وقتله ، فهذا مثال عظيم من أمثلة « التضحية بالنفس » . . . (وأقصد هنا المعنى الدارج المتعارف لهذا التعبير) . . . لأنه لم يشأ أن يقوم بهذا العمل ولأنه ما كان ليعمله لو أنه قدر أن يشترى رضا نفسه بثمن أقل . ولكننا مصنوعون بطريقة تجعلنا ندفع أى شيء ثمناً لهذا الإرضاء — ولو كان هذا الثمن حياة رجل آخر .

الشاب : لقد تحدثت منذ لحظة عن الضمائر المدربة ، فهل تعنى أننا لم تولد معنا ضمائر قادرة على توجيهنا لطريق الخير ؟

الشيخ : لو أن الأمر كذلك لعرف الأطفال والمتوحشون الخير من الشر بدون الحاجة إلى تعليم . . . . .

الشاب : ولكن هل يمكن تدريب الضمائر ؟

الشيخ : نعم .

الشاب : بطبيعة الحال يأتى التدريب على أيدى الوالدين ، والمدرسين ورجال الدين والكتب .

الشيخ : نعم كل هؤلاء يقومون بأدوارهم ، يعملون ما يقدرون عليه .

الشاب : والباقى يقوم به . . . . . .

الشيخ : آلاف المؤثرات غير الملحوظة — منها ما هو طيب ، ومنها ما هو سيء ، مؤثرات تعمل بدون توقف خلال كل لحظة من لحظات اليقظة فى حياة الإنسان . . . من المهد إلى اللحد .

الشاب : هل أحصيت كل هذه المؤثرات ؟

الشيخ : نعم عدد كبير منها .

الشاب : هل تتفضل بإطلاعى على النتيجة ؟

الشيخ : نعم ، ولكن فى وقت آخر ، فقد تستغرق هذه العملية ساعة تقريبا

الشاب : هل يمكن تدريب الضمير على تجنب الشر وتفضيل الخير ؟

الشيخ : نعم .

الشاب : ولكنه فى هذه الحالة يفضل الخير بدافع « إرضاء النفس ؟ »

الشيخ : لا يمكن تدريبه على أن يعمل شيئاً بدافع آخر ، لأن مثل هذا التدريب مستحيل .

الشاب : لا بد أن تاريخ الإنسان يحوى فى زواياه عملا يشهد بتضحية النفس تضحية حقيقية تامة .

الشيخ : أنت ما زلت صغيراً ، وما زالت الحياة أمامك طويلة ، فابحث عن مثل هذا العمل .

الشاب : يبدو لى أنه حين يرى رجل إنسانا آخر يناضل الأمواج فيقفز فى الماء مخاطراً بحياته لينقذه . . .

الشيخ : انتظر ، صف لى « الرجل » الذى ذكرت ؛ صف « الإنسان الآخر » ؛ واذكر لى هل هناك متفرجون ، أم هل هما وحدهما ؟

الشاب : وما دخل هذه الأشياء كلها فى العمل البديع الذى نحن بصدده ؟

الشيخ : لها دخل كبير . هل نفترض بشكل مبدئى أن الإثنين منفردان فى مكان منعزل ، وأن الوقت كان منتصف الليل ؟

الشاب : لك أن تختار ذلك .

الشيخ : وهل نفترض أن « الإنسان الآخر » هو ابنة ذلك « الرجل » ؟

الشاب : لا بل أظن أن من الأوفق افتراض شخص آخر .

الشيخ : إذن فلنختر لمثالنا عربيداً قذراً فى حالة سكر .

الشاب : آه ، فهمت . بتغير الظروف يتغير وضع القضية . أظن أنه لو لم يوجد متفرجون يشهدون هذا العمل لما قام به صاحبه .

الشيخ : ولكن قد يوجد هنا أو هناك شخص يقوم به رغم ذلك — أناس مثل ذلك الرجل الذى فقد حياته فى محاولة إنقاذ الطفل من النار ، والرجل الذى أعطى العجوز المُعْدِمَة ربع دولار وسار إلى بيته فى العاصفة ، مثل هؤلاء الناس يقومون بأعمالهم بدون الحاجة إلى متفرجين ولماذا ؟ لأنه لا يمكنهم احتمال رؤية إنسان آخر يناضل الأمواج بدون أن يقفزوا فى الماء لإنقاذه ؛ فإذا لم يقفزوا سبب ذلك لهم ألماً. هم ينقذون « الإنسان الآخر » على هذا الأساس ؛ ولن يعملوا نفس العمل على أساس آخر . هم يطيعون طاعة عمياء ذلك القانون الذى حاولت أن أؤكده لك أكثر من مرة . يجب أن تتذكر وتميز دائماً بين الأشخاص الذين يمكنهم احتمال أشياء بالذات والأشخاص الذين يمكنهم احتمالها . فهذا يلقى ضوءاً على حالات قد تبدو فيها روح « التضحية بالنفس » .

الشاب : أعوذ بالله . هذه تفسيرات تدعو للاشمئزاز .

الشيخ : نعم ولكنها الحقيقة .

الشاب : والآن يا سيدى — إليك مثال الولد الطيب الذى يعمل أشياء لا يرغب فيها لمجرد إرضاء أمه . . .

الشيخ : إن ٧٠٪ من الدافع وراء العمل هو رضاه الشخصى حين ترضى أمه ؛ فإذا حولت نفس النسبة فى الاتجاه المضاد فإن الولد الطيب سوف يرفض القيام بالعمل . لا بد له من أن يتبع ذلك القانون ، يتبع ذلك القيد الحديدى الذى لا يقدر أحد على الإفلات منه .

الشاب : إذن فإليك مثال الولد الفاسد الذى . . . .

الشيخ : لا داعى لأن تذكر هـذا ، فهو مضيعة للوقت . ليس المهم هو ما عمله الولد الفاسد ؛ فأيا كان عمله فلا بد أن وراءه دافع البحث عن إرضاء الذات . وإن رأيت غير هذا الرأى فلابد أنك لم تعرف كل ماحدث ولا بد أنه لم يقم بذلك العمل .

الشاب : هذا موضوع يدعو لليأس ؛ فمنذ لحظة قلت لى إن ضمير الإنسان لم يولد قادراً على الحكم على القيم الإخلاقية ولا على السلوك ، بل لابد من تعليمه وتدريبه . وأنا أرى أن الضمير يمكن أن يغدو خاملا أو وسنان ، ولكنى لا أعتقد أنه يمكن أن يخطئ ، فإذا أيقظته . . . . .

قصة صغيرة

الشيخ : سوف أقص عليك قصة صغيرة .

حدث ذات مرة أن نزل كافر ضيفاً على أرملة مسيحية ، وكان ابنها الصغير مريضاً مشرفاً على الموت . كان الكافر غالباً ما يجلس بجانب فراش المريض ويسليه بأحاديثه ، وينتهز هـذه الفرصة ليرضى حاجة ملحة من حاجات نفسه ؛ وهى الرغبة عنـد كل فرد منا فى أن

نصلح حال غيرنا بجعلهم يعتقدون نفس معتقداتنا . نجح الكافر في محاولته ولكن الطفل حين حضرته الوفاة عاتب ضيفه في آخر لحظة من حياته فقال :

« كنت مؤمناً وكنت سعيداً بإيماني ؛ ولكنك أضعت هذا الإيمان وأضعت معه راحة بالي ؛ والآن لم يبق لي ما أعتز به ، وإني لأموت شقياً ، لأن الأشياء التي حدثتني بها لا تملأ مكان العقيدة التي فقدتها » .

كما أن الأم عاتبت الكافر فقالت :

« خسرت ابني ، وخسر هو نفسه إلى الأبد ، وبات قلبي يلهبه الحزن . كيف سمحت لنفسك بأن تفعل هذه الفعلة القاسية ؟ نحن لم نسئ إليك بل بالعكس أحسنّا . جعلنا من دارنا بيتاً لك ؛ وجعلنا كل ما نملك رهن تصرفك . أوَهكذا يكون الجزاء ؟ »

فامتلأ قلب الكافر بالندم على ما فعل وقال :

« كان ما فعته خطأ — وإني أرى ذلك الآن . ولكني ما أردت إلا نفعه . كنت أعتقد أنه على خطأ ، وبدا لي أن من واجبي أن أعلمه الحقيقة » فقالت الأم :

« لقد علمته خلال حياته القصيرة ما اعتقدت أنه الحق ، وكنا كلانا سعيدين بإيمانه بهذه العقيدة . ولكنه الآن مات بعد أن خسر نفسه ، وأنا غدوت شقية تعسة . فعقيدتنا جاءتنا خلال أجيال متعاقبة من الأسلاف المؤمنين . فبأي حق سمحت لنفسك أن تعكر صفو هذه العقيدة ؟ أين كان شرفك ؟ أين كان حياؤك ؟ »

الشاب : كان كافراً ويستحق الموت .

الشيخ : فكّر هو نفسه فى هذا ، بل وقاله أيضاً :

الشاب : آه ! أرأيت لقد استيقظ ضميره .

الشيخ : نعم . استيقظ « شعوره بعدم الرضا عن نفسه » . آلمه أن يرى الأم تقاسى فشعر بالأسف لأنه عمل شيئاً سبب الألم له هو « مادار بخلده أن يفكر فى الأم وقت أن كان يعلم الابن ، فقد انشغل حينذاك فى تحصيل اللذة لنفسه ؛ تحصيلها عن طريق إرضاء ما اعتَقَدَ أنه صوت الواجب .

الشاب : سمّه ماشئت — فأنا أعتبر الموضوع كله حالة من حالات «يقظة الضمير » . فالضمير بعد يقظته سوف لا يقذف بنفسه فى مثل هذه المشكلة مرة أخرى ، وإن علاجا مثل هذا يترك أثراً دائماً .

الشيخ : أرجو المعذرة — فأنا لم أكمل القصة بعد . نحن مخلوقات خاضعة للمؤثرات الخارجية — لا نخلق شيئاً داخل أنفسنا — فكلما اتخذنا طريقاً جديداً للتفكير أو العقيدة أو العمل فإنما يأتينا الدافع من الخارج

عاش الكافر فريسة للندم على فعلته ، فأذاب هذا الندم روح البغض لديانة الطفل وجعله ينظر إليها بشىء من التسامح ، ثم بشىء من العطف وذلك من أجل الطفل ومن أجل أمه) ، وأخيراً وجد نفسه يدرس هذه الديانة ؛ ومنذ تلك اللحظة أصبح تقدمه فى طريقه الجديد سريعاً ومضموناً « اعتنق العقيدة المسيحية فأصبح ندمه على استلاب إيمان الطفل المريض وحرمانه من المغفرة أشد من مرارة من قبل . حرمه الندم نعمة السلام والراحة ، ولكن لابد له من السلام والراحة — فهكذا يقضى قانون الوجود . لم يبق له غير طريق واحد لينال سلامة الروح وراحة البال لابد له من تكريس نفسه لإنقاذ الأرواح المستهدفة للخطر ، فغدا مبشراً . سافر لبلاد تدين بغير المسيحية ، ونزل بها مريضاً ليس له

من نصير . أخذته أرملة من أهل تلك البلاد إلى دارها المتواضعة ومرضته بعناية حتى أوصلته إلى دور النقاهة ، وعندئذ مرض ابنها وبرح به المرض وتقدم المبشر لمساعدتها اعترافاً منه بجميلها . وهنا صادفته أول فرصة لإصلاح الخطأ الذى ارتكبه فى حق الطفل الأول ، بأن يؤدى خدمة لهذا الطفل الجديد ، فيمحو بالتدريج إيمانه الأبله بآلهة زائفين . نجح فى هذه المحاولة ، ولكن الطفل حين حضرته الوفاة ، عاتبه فى آخر لحظة من حياته فقال :

« كنت مؤمناً وكنت سعيداً بإيمانى ، ولكنك أضعت هذا الإيمان ، وأضعت معه راحة بالى ؛ والآن لم يبق لى ما أعتز به ، وإنى لأموت شقياً ، لأن الأشياء التى حدثتنى بها لا تملأ مكان العقيدة التى فقدتها » .

كما أن الأم عاتبت المبشر فقالت :

« خسرت ابنى وخسر هو نفسه إلى الأبد ، وبات قلبي يلهبه يلهبه الحزن ، كيف سمحت لنفسك بأن تفعل هذه الفعلة القاسية ؟ نحن لم نسىء إليك بل بالعكس أحسنا ، جعلنا من دارنا بيتاً لك ؛ وجعلنا كل ما نملك رهن تصرفك أوهكذا يكون الجزاء ؟ »

فامتلأ قلب المبشر بالندم على ما فعل وقال :

« كان ما فعلته خطأ — وإنى أرى ذلك الآن ولكنى ما أردت إلا نفعه . كنت أعتقد أنه على خطأ ، وبدا لى أن من واجبى أن أعلمه الحقيقة » .

فقالت الأم :

« لقد علمته خلال حياته القصيرة ما اعتقدت أنه الحق ، وكنا كلانا سعيدين بإيمانه بهذه العقيدة . ولكنه الآن مات بعد أن خسر

نفسه ، وأنا غدوت شقية تعسة . فعقيدتنا جاءتنا خلال أجيال متعاقبة من الأسلاف المؤمنين . فبأى حق سمحت لنفسك أن تعكر صفو هذه العقيدة أين كان شرفك ؟ أين كان حياؤك ؟ »

فكان لألم المبشر وندمه وإحساسه بغدره فى هذه الحالة نفس المرارة ونفس العذاب المستمر الذى سببته فعلته الأولى . . . . هذه هى نهاية القصة فما تعليقك ؟

الشاب : لقد كان ضمير الرجل أبله ، كان ضعيفاً ، كان لا يميز بين الحق والباطل .

الشيخ : لا يؤسفنى أن أسمعك تقول ذلك ، فإن كنت تقر بأن ضمير رجل واحد لا يميز بين الحق والباطل ، فهذا اعتراف بأن هناك ضمائر أخرى تشبهه وهذا الاعتراف وحده يكفى لهدم النظرية القائلة بأن حكم الضمير لا يخطىء . وفى نفس الوقت هناك شىء أرجو أن تلاحظه .

الشاب : وما هو ؟

الشيخ : هو أنه فى كلتا الحالتين لم تصادف الرجل متاعب نفسية أثناء قيامه بعمله ، بل كان راضياً عنه كل الرضا وسره أن يقوم به ، ولكن حين سبب له ألماً فيما بعد أسف على ما فعل ، نعم يؤسفه أن كان مبعثاً لآلام الآخرين ، ولكن لن تجد لأسفه سبباً بالمرة غير هذا ، وهو أن آلامهم ترتب عليها ألمه هو . . . فضمائرنا لا تعنيها آلام الآخرين حتى تصل إلى حد تغدو فيه مبعثاً لآلامنا نحن . أى أنه فى كل حالة — وبدون استثناء — نجد أنفسنا غير عابئين بما يمانيه غيرنا إلا إذا أثار شقاؤهم شعوراً بعدم الارتياح عندنا . فأنا لا أشك فى أن عدداً

كبيراً من الكفار ما كان ليؤثر فيهم ما حل بتلك الأمم المسيحية التي كنا نتحدث عنها ألا تعتقد ذلك ؟

الشاب : نعم وأعتقد أن قولك هذا يمكن أن ينطبق على كل كافر عادى .

الشيخ : كما أن عدداً كبيراً من المبشرين ممن يتعصبون لواجبهم ما كان ليؤثر فيهم ما حل بالأمم الكافرة — مثال ذلك المبشرين الجزويت في كندا في أوائل نزول الفرنسيين بها ، ويمكنك أن تقرأ بنفسك ما كتبه عنهم باركمان .

الشاب : أظننا نكتفي بهذا القدر من الحديث اليوم ، إلى أى نتيجة وصلنا الآن ؟

الشيخ : إلى هذه النتيجة : إننا (بنى الإنسان) قد ألصقنا بأنفسنا عدداً من الصفات جعلنا لها أسماء خداعة : الحب ، والكره ، والإحسان ، والعطف ، والبخل ، والرحمة ، وهكذا . أقصد أننا نلصق « معانى » خداعة بهذه الأسماء فهى كلها مظاهر لإرضاء النفس ، ولكن الأسماء تلبس هذه الحقيقة (إرضاء النفس) من الأثواب ما يشغل انتباهنا عن رؤية الحقيقة نفسها .

ثم إننا أدخلنا فى القاموس كلمة ما كان ينبغى لها أن تظل هناك وهى « التضحية بالنفس » ، فهذه الكلمة تعبر عن شيء واحد لا وجود له . ولكن الأسوأ من هذا كله أننا نتجاهل ولا نذكر مطلقاً الدافع الوحيد الذى يملى على الإنسان كل أعماله ، وهو الحاجة الملحة لضمان رضاه عن نفسه فى كل ظرف وبأى ثمن . فما نحن إلا من صنع هذا الدافع . هو لنا بمثابة الأنفاس والقلب والدم ، هو « المهماز » الذى

يحزنا والسوط الذى يلهبنا ، هو القوة الدافعـة التى لا نملك غيرها ، وبدونه نصبح صوراً وأجساداً لا حياة فيها . فلا تجد من يكلف نفسه عناء القيام بأى عمل ، وينعدم التقدم انعداماً تاماً ، ويتوقف نشاط العالم نهائياً ، فيجب أن نقف خاشعين حين يذكر اسم هـذه القوة الهائلة .

الشاب : أنا غير مقتنع .

الشيخ : سوف تقتنع حين تفكر .

الفصل الثالث

أمثلة فى الموضوع

الشيخ : هل أوليت مذهب « استرضاء الذات » شيئاً من تفكيرك منذ تحدثنا ؟

الشاب : نعم ، فعلت ذلك .

الشيخ : كنت أنا الذى وجهتك إلى هـذا التفكير ، أى أن « مؤثراً خارجياً » هو الذى وجهك إليه — فالفكرة لم تنبت فى رأسك من تلقاء نفسها ، هل لك أن تعى هذا جيداً ولا تنساه ؟

الشاب : نعم . ولمـاذا ؟

الشيخ : لأننى أرجو أن أتمـكن فى إحدى محادثاتنا القادمة من أن أقنعك تدريجياً بأنك لن تقدر ، ولن أقدر أنا ، ولن يقدر أى إنسان آخر على خلق فـكرة جديدة لم يسبق لها وجود إلا فى عقله هو ، فقائل أى فـكرة إنمـا يردد فـكرة سابقة .

الشاب : ولـكن . . .

الشيخ : انتظر ، احتفظ بتعليقك حتى يأتى موضعه من مناقشتنا — غداً أو بعد غد مثلا . والآن خبرنى هل أعملت فـكرك فى المبدأ القائل بأن كل تصرفات الإنسـان تصدر عن دافع لا يعنيه إلا « إرضاء الذات » أولا لقد بحثت ، فمـاذا وجدت ؟

الشاب : لم يصادفنى حسن الحظ ، فقد بحثت أعمالا كثيرة وبديعة وردت

فى القصص والسير ، وتبدو فيها روح التضحية بالنفس ولـكن . . .

الشيخ : بالبحث والتحليل اختفت تلك التضحية الظاهرة ، أليس كذلك ؟ هذا هو الشيء المنتظر بطبيعة الحال .

الشاب : ولـكن فى هذه القصة حادث أعتقد أن التحليل لن ينتقص من عنصر التضحية الذى يحويه ، فى غابات « آديرونداك » يعيش حطاب متدين ذو أخلاق عالية يشتغل بجانب عمله واعظاً ، ويحدث يوماً أن يأتى إلى الغابة أحد سكان نيويورك ممن يشتغلون بأعمال الخير فى الأحياء الفقيرة — فهو رئيس لأحد أقسام حركة جامعية للإصلاح فى هـذه الأحياء ، يثير وجود هذا الغريب فى نفس « هولم » الحطاب الواعظ رغبة جامحة فى أن يهجر مصالحه الدنيوية ليكرس نفسه للدعوة للخير فى « ايست سايد » ، للوعظ بين جمـاعات صغيرة من الفقراء الأجانب أنصاف المتمدينين الذين يسخرون منه طول الوقت . يتقبل السخرية مسروراً راضياً نظراً لأنه إنمـا يعانى ما يعانيه من أجل المسيح ، لقد ملأت رأسى بالشكوك لدرجة أننى كنت أتوقع دائماً أن أجد دافعاً لا يدعو للثقة مختبئاً خلف هذا العمل ولـكننى فشلت لحسن الحظ ، فقد رأى هذا الرجل واجبه وضحى بنفسه فى سبيل هذا الواجب ، واحتمل العبء الذى فرضه عليه هذا الواجب .

الشيخ : هل هذا كل ما قرأت ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : دعنا نذهب إلى أبعد مما قرأت . فحين اعتقد أنه « يضحى بنفسه » (وليس ذلك من أجل الدين كما كان يظن بل من أجل إرضاء ذلك

الدافع الجبار الذى لا ينثنى ولا يتحول والذى يسيطر على كيانه من الداخل) هل ضحى فى نفس الوقت بأشخاص آخرين ؟

الشاب : ماذا تعنى ؟

الشيخ : لقد تنازل عن عمل يدر عليه الربح بينما عمله الجديد لا ينيله أكثر من مجرد الغذاء والمسكن ، هل كان له من يعولهم ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : كيف وإلى أى حد أثرت فيهم « تضحيته بنفسه » ؟

الشاب : كان يعول والداً مسناً ، وكانت له أخت صغيرة ذات صوت جميل — وكان يعينها على تلقى دروس فى الغناء والموسيقى حتى تتمكن فيما بعد من أن تحقق أملها فى أن تعول نفسها ، كما أنه ينفق على تعليم أخ صغير فى مدرسة للفنون والصناعات يرغب فى أن يصبح مهندساً مدنياً .

الشيخ : هل انتقص تصرف صاحبنا من راحة أبيه ؟

الشاب : بالطبع ، إلى حد بعيد .

الشيخ : هل أوقفت دروس الموسيقى للأخت الصغيرة ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : وتعليم الأخ الصغير نزلت به ضربة قاضية أنهت الحلم السعيد ، فكان عليه أن يذهب لقطع الخشب أو أن يفعل شيئاً من هذا القبيل حتى يعول والده المسن أليس كذلك ؟

الشاب : نعم ، هذا هو ما حدث على وجه التقريب .

الشيخ : يالها من تضحية بديعة ! يخيل لى أنه ضحى بجميع أفراد الأسرة إلا نفسه . ألم أقل لك إنه ما من إنسان يضحى بنفسه مطلقاً ، وأن ليس هناك أى مثال لتضحية من هذا النوع ، وإنه حين يطلب « الحاكم

الداخلى » لإنسان إرضاء من أى نوع سواء أكان ذلك الإرضاء مؤقتاً أم دائماً فإن ما يطلبه ينفذ فلا نعصى له أمراً ، بصرف النظر عمن يقفون فى طريق التنفيذ أو يقاسون بسبب هذا التنفيذ . لقد حطم الرجل أسرته ليرضى ويشبع ذلك « الحاكم الداخلى » .

الشاب : وليخدم الدين .

الشيخ : نعم . ولكن هذا يأتى فى المرتبة الثانية وليس فى المرتبة الأولى ، وإن كان هو يعتقد أن خدمة الدين كانت الدافع الأول .

الشاب : لك أن تعتقد ذلك إن أردت ، ولكن من الممكن أنه برر تصرفه بهذه الطريقة : وهى أنه إذا هدى مائة شخص فى نيويورك . . .

الشيخ : فهو محق فى تضحية أسرته مقابل هذا الكسب الروحى ، مقابل هذا الـ . . . ماذا نسميه ؟

الشاب : هل نسميه الاستثمار ؟

الشيخ : لا أظن . هل تستعمل كلمة « المضاربة » ؟ هل تستعمل كلمة « المقامرة » ؟ لم يكن لديه ضمان بهداية فرد واحد . . . وإذن فقد كانت المسألة مقامرة رهن أسرته فى سبيل هذه المقامرة . وعلى كل حال فلننظر ماذا كانت النتيجة فلعلنا نظفر بمعرفة الدافع الخفى — الدافع الحقيقى الذى وجهه نحو « التضحية بأسرته » من أجل الدين بينما هو يتبع خرافة تجعله يعتقد بأنه إنما « يضحى بنفسه » حقيقة ، سوف أقرأ فصلا من القصة . . ها هو ! . . . نعم ، كان لابد للدافع من أن ينكشف فى وقت من الأوقات .

أخذ يعمل فى وعظ حثالة سكان « إيست سايد » ردحاً من الزمن ثم عاد إلى حياته الأولى فى معسكر الحطابين ليحيا مغموراً مجهولا .

« وقد نال منه الأسى وتحطم كبرياؤه » — على حد تعبير المؤلفة . ولماذا ؟ ألم تكن هذه المجهودات التى قام بها صاحبنا خالصة لوجه الله . . ألم تكن مقبولة فى نظر الخالق ؟ يا إلهى ! لقد نسيت المؤلفة هذه الحقيقة البسيطة بل هى لا تشير إليها بالمرة ؛ نسيت أن « الأعمال بالنيات » لا بالنتائج ، فما هى مشكلة صاحبنا إذن ؟ نجد المؤلفة تتخلى بشكل ساذج ، بشكل لا شعورى عن موقفها الأصلى حيال الموضوع ، المشكلة تتلخص فيما يأتى : كل ما عمله ذلك الرجل هو أنه تطوع لوعظ الفقراء ، ولم يكن نشاط حركة الإصلاح الجامعية قاصراً على هذا المجهود المتواضع فحسب بل هى تعنى بأمور أكبر وأهم ، فلم يتحمس أنصارها لتلك البلاغة الفجة التى غالباً ما يمتاز بها دعاة « جيش الخلاص » .

عامله رجال حركة الإصلاح بأدب يمازجه برود ، لم يدللوه ولم يفتحوا له صدورهم مرحبين ، ثم تستطرد المؤلفة قائلة « ضاع كل ما كان يحلم به من مجد ومدح ، وتقدير من جانب . . . . » من جانب مَن ؟ المسيح ؟ كلا ، لم تذكر المؤلفة ذلك . من جانب مَن إذن ؟ « من جانب زملائه العمال » . لماذا أراد تقديرهم ومدحهم ؟ لأن الدافع الذى يسيطر عليه ، لأن السيد الذى يتحكم فى كيانه من الداخل أراد ذلك ، ولم يقنع بما دون ذلك ، فهذه الجملة المؤكدة التى قرأتها لك تكشف عن السر الذى كنا نبحث عنه — تكشف عن الدافع الأصلى ، الدافع الحقيقى الذى دفع بحطاب « آديرونداك » المغمور ليضحى بأسرته ويذهب إلى تلك الحرب الصليبية فى « إيست سايد » .

وإذن فالدافع الأصلى هو أن صاحبنا عمل ما عمل ليعرض أمام أنظار عالم يجهله مقدار ما حبته به الطبيعة من مواهب تؤهله للتفوق

والبروز ، فكما ذكرت لك من قبل ليس هناك عمل يصدر عن غير هذا القانون ، وهذا الدافع . ولكن أرجوك ألا تقبل قانوناً لمجرد أنى أنا الذى أقول به ، بل عليك أن تناقشه وتمحصه ، فكلما قرأت أو سمعت عن عمل ينطوى على التضحية بالذات ، أو عن واجب يؤدى من أجل الواجب ليس إلا ، فعليك أن تحلله وأن تنفذ بين ثناياه باحثاً عن الدافع الحقيق ولسوف تجد ذلك الدافع دائماً .

الشاب : إنى أعمل ذلك كل يوم . لا أملك أن أمتنع عن عملية التحليل هذه بعد أن وجهتنى فى هذا الاتجاه الهدام . هى عملية مسلية وكريهة فى نفس الوقت فكلما صادفت فى كتاب عملا مجيداً أجد نفسى مضطراً للوقوف أمامه لأختبره . ليس بوسعى أن أمنع نفسى .

الشيخ : هل وجدت مثالا واحداً يناقض القاعدة .

الشاب : لا — على الأقل لم أجد بعد . ولكن إليك هذا المثال : عادة دفع البقشيش للخدم فى أوربا . أنت تدفع لإدارة الفندق حساباً خاصاً بالخدمة . ليس عليك أن تدفع شيئاً للخدم ؛ ولكنك مع ذلك تنفحهم شيئاً ، ألا يناقض هذا قاعدتك ؟

الشيخ : وكيف ذلك ؟

الشاب : أنت لست مضطراً للدفع ، وعلى هذا فأنت تتصرف بهذه الطريقة لمجرد عطفك على حالتهم المالية ، وأجورهم الضئيلة . . .

الشيخ : هل حدث أن سببت لك هذه العادة نوعاً من المضايقة ؟

الشاب : . . . . . نعم

الشيخ : ولكنك مع ذلك خضعت لها ؟

الشاب : بالطبع .

الشيخ : بالطبع . ولماذا ؟

الشاب : العادة تسرى سريان القانون إلى حد ما ، والقوانين تستلزم نوعاً من الخضوع . وهذه العادة بالذات يقرها الجميع كنوع من الواجب .

الشيخ : وعلى ذلك فأنت تدفع هذه الضريبة التى تسبب لك كثيراً من المضايقة من أجل القيام بالواجب ليس إلا ؟

الشاب : لا أظن الأمر يخرج عن ذلك .

الشيخ : إذن فالدافع الذى يميل بك نحو أداء ضريبة « البقشيش » ليس كله عطفا وإحسانا وبرا ؟

الشاب : لعلك مصيب فى استنتاجك .

الشيخ : إن لم يكن كل الدافع فقد يكون . . . . بعضه ؟

الشاب : ربما أكون قد تسرعت فى تحديد مصدر هذا العمل .

الشيخ ربما . وإذا تجاهلت عادة « البقشيش » فهل تحصل على خدمة سريعة فعالة ؟

الشاب : لا تغالط نفسك ، لن تحصل فى هذه الحالة على أية خدمة بالمرة من أولئك الخدم الأوربيين .

الشيخ : ألا يمكن اعتبار هذا حافزاً يوجهك نحو دفع تلك الضريبة .

الشاب : أنا لا أنكر ذلك .

الشيخ : يبدو لى إذن أنها حالة من حالات « الواجب من أجل الواجب » مضافاً إليها شىء من المصلحة الذاتية ؟

الشاب : نعم . يمكن قبول هذا التفسير . ولكن هناك نقطة أخرى ، وهى إننا ندفع الضريبة مع علمنا بأنها استغلال جشع غير عادل ، ومع ذلك نحس بالألم إذا تركنا أولئك المساكين ونحن نعتقد أننا قد عاملناهم

بشيء من البخل ، ونرجو من صميم قلوبنا لو أننا رجعنا إليهم لنكفر عن خطئنا فنعمل الصواب ، بل وأكثر من الصواب . . . لنؤتى البر . وأظنك واجداً صعوبة كبرى إن حاولت أن تكشف عن فكرة «الذات» فى هذا الدافع النبيل .

الشيخ : ظنك يدعونى للعجب ، حين تجد مبلغاً خاصاً « بالخدمة » مسجلا ضمن قائمة حساب الفندق هل يضايقك هذا ؟

الشاب : كلا .

الشيخ : هل حدث أن شكوت من قيمة هذا المبلغ ؟

الشاب : كلا . ولن يخطر ببالى أن أفعل .

الشيخ : إذن فليس « الحساب » هو مبعث المضايقة لأنه مبلغ محدد وأنت تدفعه عن طيب خاطر ، تدفعه بدون أدنى اعتراض ، وعلى فرض أن كل خادم وخادمة حـدد قيمة المبلغ الذى تدفعه له فيما بينك وبينه ، فهل ترضيك مثل هذه الخطة ؟

الشاب : ترضينى ؟ إنها تفرحنى .

الشيخ : ولو كانت الضريبة المحددة أكثر قليلا من المبلغ الذى تعودت أن تدفعه من تلقاء نفسك « كبقشيش » ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : حسنا إذن . أفهم من ذلك أن ما يوجهك نحو أداء هذه الضريبة ليس العطف بل وليس الواجب ، وأن ما يضايقك ليس مبلغ الضريبة ، ولـكن مع ذلك هناك شيء يضايقك . فما هو ؟

الشاب : المشكلة هى أنك لا تعرف ماذا عليك أن تدفع ، فإن القيم تختلف اختلافاً بيناً من مكان إلى آخر فى أوربا .

الشيخ : إذن فعليك أن تحدس ؟

الشاب : ليست هناك طريقة أخرى ، فتظل طول الوقت تفكر وتفكر ، وتحسب وتخمن ، وتتشاور مع غيرك لتستبين وجهة نظرهم . وهـذا الاهتمام يفسد عليك نومك أثناء الليل ، ويجعلك فى حالة قلق دائم أثناء النهار ، وحين تتظاهر بأنك تشهد المناظر والأماكن ، فأنت فى الواقع مشغول طول الوقت بحدسك وتخمينك — وهكذا لا ينتهى لك هم أو قلق .

الشيخ : وكل هذا من أجل دين لست مطالباً به بل وليس عليك أن تدفعه إلا بمحض اختيارك ! يا للعجب !! وما هى الغاية التى تريد أن تصل إليها عن طريق حدسك وتخمينك ؟

الشاب : هى أن أعرف مقدار ما يصح أن أعطيهم بدون أن أظلم أحداً منهم .

الشيخ : تبدو على هـذا التصرف مظاهر النبل ، فأنت تتحمل كل هذه الآلام وتضيع كل هذا الوقت فى محاولتك أن تتصرف بعدل نحو خادم لا ترتبط نحوه بأى التزام سوى أنه فى حاجة للمال لضآلة الأجر الذى يتقاضاه .

الشاب : أعتقد أنه لو وجد وراء هذا العمل حافز لا ينطوى على معنى النبل فإننا سوف نرهق أنفسنا بحثاً عنه بدون جدوى .

الشيخ : كيف يتيسر لك أن تعرف أن المبلغ الذى دفعته لخادم أقل مما يجب ؟

الشاب : تجده فى هذه الحالة صامتاً . لا يعبر عن شكره ، وأحياناً يلقى عليك نظرة تذيبك خجلا . كبرياؤك لا تسمح لك بإصلاح خطئك حينذاك وحولك أناس ينظرون ما أنت فاعل ؛ ولكنك فيما بعد تتمنى لو أنك كنت دفعت ما ينتظره منك .

وأحياناً تحكم من القرائن أنك أصبت عين الهدف فتتركه وأنت

تشعر بمنتهى الارتياح . وفى أحيان أخرى يطنب الرجل فى شكرك بحيث تعلم أنك أعطيته أكثر بكثير من القدر اللازم .

الشيخ : اللازم ؟ اللازم لأى شىء ؟

الشاب : لإرضائه .

الشيخ : وما شعورك فى مثل هذه الحالات الأخيرة ؟

الشاب : ندم .

الشيخ : أعتقد أنك لم تكن تشغل بالك بمحاولة استنتاج مايستحقه الخادم ، بل بمحاولة معرفة ما يرضى الخادم ، وأرى أن المسألة فيها نوع من خداع الذات .

الشاب : وكيف ذلك ؟

الشيخ : إذا أعطيته أقل مما كان ينتظر فإنه سوف يلقى عليك نظرة « تخجلك أمام الناس » وهذا بالطبع سوف يسبب لك ألماً . فالألم ألمك أنت — أى أنك تعمل من أجل نفسك وليس من أجله . وإذا أعطيته أكثر مما يجب فسوف تخجل من نفسك ، وهذا الخجل يسبب لك ألماً — وهذه حالة أخرى من حالات تفكيرك فى نفسك ، إنقاذ نفسك من الشعور بعدم الارتياح .

فأنت لا تفكر فى الخادم مطلقاً — اللهم إلا لتحوز الوسيلة التى تنال بها رضاه ، فإذا نلت رضاه عنك ، نلت رضاك من نفسك ، وهذا هو الشيء الوحيد الذى تبحث عنه ، وبذلك يغدو ضميرك ، يغدو السيد المسيطر على كيانك من الداخل راضياً ، قانعاً ، مرتاحاً .

وفيما عدا هذا الضمير ليس هناك شيء آخر ذو أهمية أولية فى كل العمليات التى ذكرناها .

أمثلة أخرى

الشاب : ولكن كيف أسمح لنفسى بإنكار التضحية بالذات من أجل الآخرين بإنكار أسمى ما يمكن أن يتصف به إنسان .

الشيخ : أتتهمنى بقول ذلك ؟

الشاب : طبعاً .

الشيخ : لا ، أنا لم أقل ذلك .

الشاب : ماذا قلت إذن ؟

الشيخ : إنه ما من إنسان ضحى بنفسه بالمعنى المفهوم عادة من هذا التعبير — أى تضحية النفس من أجل الآخرين فحسب . بل يقوم كثير من الناس يومياً بتضحيات من أجل الآخرين ، ولكنها فى عين الوقت تكون من أجل أنفسهم أولا وقبل كل شىء ، يجب أن يؤدى تصرفهم إلى إرضاء أنفسهم أولا . أما من عداهم فيأتون فى المرتبة الثانية .

الشاب : وهل تنطبق نفس القاعدة على أداء « الواجب من أجل الواجب » .

الشيخ : نعم . فما من إنسان يقوم بواجب من أجل الواجب فحسب ، بل لابد أن يؤدى عمله إلى إرضاء نفسه أولا — لا بد أن يشعر (لمجرد قيامه بالواجب) براحة نفسية أكبر مما لو أهمل الواجب ، وإلا امتنع من أدائه .

الشاب : خذ على سبيل المثال حادث غرق السفينة « بركلى كاسل » .

الشيخ : نعم ، هذا مثال لواجب نبيل نفذ بمنتهى العظمة . حلل الحادث إلى عناصره واختبره إن أردت .

الشاب : سفينة من السفن البريطانية لنقل الجنود كانت تحمل عدداً كبيراً

من الجنود وزوجاتهم وأطفالهم ، اصطدمت بصخرة وبدأت تغرق ، لم تكن زوارق النجاة تتسع لغير النساء والأطفال ، صف الكولونيل فرقته فوق سطح السفينة وقال « إن من واجبنا أن نموت حتى يتسنى إنقاذهم » . لم يكن هناك أدنى اعتراض أو شكوى ، حملت الزوارق النساء والأطفال فى عرض البحر ، وحين أتت لحظة الموت اتخذ الكولونيل والضباط أماكنهم واصطف الجنود كما يفعلون فى مناسبات الاحتفال أو العرض ، وبينا علمهم يخفق فوق رؤوسهم وطبولهم تدق بحماس وحرارة غاصوا فى اليم شيئاً فشيئاً ، وهكذا ضحوا بأنفسهم من أجل الواجب . هل يمكنك أن ترى الحادث فى ضوء غير هذا ؟

الشيخ : نعم ، نعم . . . كان لعملهم مثل هذا الجلال ومثل هذا السمو ! هل تعتقد أنه كان باستطاعتك أن تظل ثابتاً بين هذه الصفوف وتلقى حتفك بمثل هذه الشجاعة .

الشاب : باستطاعتى ؟ وأنى لى مثل هذا الثبات ؟

الشيخ : فكر ، تخيل نفسك هناك . . . . تخيل ذلك المصير المحتوم يبتلعك بمثل هذا البطء ، شيئاً فشيئاً .

الشاب : بإمكانى أن أتخيل كل هذا ، وإنى لأحس بكل ما يبعثه من هول وفزع . ما كان باستطاعتى أن أحتمله ولا أن أظل ثابتاً فى مكانى ، أنا واثق من ذلك .

الشيخ : لماذا ؟

الشاب : لأنى أعرف نفسى ، وأعلم أنى لا أقدر على فعل ما فعله أولئك الجنود .

الشيخ : لو أنك كنت بينهم لكان من واجبك الثبات .

الشاب . أعلم ذلك ، ولكنى ما كنت أقدر .

الشيخ : لقد كانوا أكثر من ألف رجل ، ومع هذا لم يضطرب واحد منهم ، لا بد أن بعضهم ولدوا ولهم نفس مزاجك واستعدادك ، فإن كانوا قد قاموا بهذا الواجب فكيف لا تقدر أنت ؟ ألا تعلم أن بوسعك أن تذهب فتجمع ألف كاتب وعامل وتضعهم معاً على ظهر سفينة ، فلو أنك سألتهم أن يموتوا من أجل الواجب فلن يبقى منهم فى أماكنهم عشرون على أكثر تقدير .

الشاب : نعم ، أعلم ذلك .

الشيخ : ولكنك إن دربتهم ودفعت بهم إلى معركة أو معركتين فسوف يصبحون جنوداً ، لكل منهم كبرياء الجندى ، واعتداد الجندى ، والمثل العليا للجندى ، وحينئذ يصبح من واجبهم إرضاء نفسية الجندى ، لا نفسية كاتب أو نفسية عامل وهل يمكنهم إرضاء تلك الروح بالهرب من واجب الجندى ؟

الشاب : لا أظن ذلك .

الشيخ : إذن فسوف يعملون الواجب ، لا من أجل الواجب بل من أجل أنفسهم أولا ، فالواجب هو هو لم يتغير ، وكانت تقتضيه نفس الضرورة حين كانوا كتبة وعمالا — حين كانوا « بادئين » . ولكنهم ما كانوا ليؤدوه لمجرد أنه واجب أو لمجرد أن الضرورة تقتضيه ، فكعمال وكتبة كانت لهم مثل عليا من نوع آخر ، وروح من نوع آخر ، وكان عليهم إرضاء تلك الروح وتلك المثل ، وقد أرضوها فعلا — وجدوا أنفسهم مضطرين لإرضائها ، هذا هو قانون تكوينهم .

إن التدريب قوة هائلة ، وتدريب المرء حتى يتشبع بمثل عليا أسمى وأسمى يستحق تفكير كل إنسان ومجهوده ومثابرته

الشاب : ولكن ما رأيك فى رجل لا يتحول عن واجبه نحو عقيدته ولو أعدم حرقاً ؟

الشيخ : هذا رهين بشيئين : تكوينه وتدريبه ، هو لا يملك إلا أن يرضى الروح التى بين جنبيه ولو كلفه ذلك فقد حياته ، ولعل رجلا آخر يؤمن بعقيدته نفس الإيمان (ولكن تكوينه من نوع مختلف) لا يجد فى نفسه القدرة على التضحية من أجل الواجب ، بينما هو يعترف به كواجب ، ويحزنه عجزه عن التضحية ، هذا الرجل بدوره لا يملك إلا أن يرضى الروح التى بين جنبيه ، هو لا يمكنه أن يؤدى الواجب من أجل الواجب فيموت بالإعدام حرقاً ، لأن هذه التضحية لا ترضى نفسه ، وإرضاء النفس يأتى قبل كل اعتبار آخر — يأتى قبل كل واجب آخر .

الشاب : لنأخذ على سبيل المثال حالة رجل الدين الذى لا تشوب أخلاقه شائبة ، والذى يعطى صوته فى الانتخابات لصالح لص فى تذكرة حزبه ، وضد رجل شريف فى تذكرة الحزب الآخر .

الشيخ : هو مضطر لأن يرضى نفسه أولا . تنعدم معايير الأخلاق العامة ، ومعايير الأخلاق الخاصة حين توضع مصالح حزبه فى كفة الميزان . هو لن يتبع إلا طبيعة تكوينه وتدريبه .

الفصل الرابع

التـــدريب

الشاب : أراك لا تنفك عن استخدام هذه الكلمة (التدريب) هل تعنى بها...

الشيخ : الدراسة ، التعليم ، المحاضرات ، الوعظ ؟ هذه تكوّن جزءاً من عملية التدريب ولكنه جزء غير كبير ، أنا أقصد بالتدريب كل المؤثرات الخارجية . هنــاك ملايين منها ، فمن المهد إلى اللحد وفى خلال كل ساعات اليقظة يظل الكائن البشرى واقعاً تحت تأثير عملية التدريب .

وفى الطبقة الأولى من مدربيه ، يأتى « ترابط المعانى » — فبيئته هى التى تؤثر فى عقله وفى شعوره ، وتمده بمثله العليا — هى التى تضعه فى بداية الطريق وتستبقيه سائراً فيه ، فإذا حاد عن ذلك الطريق فسوف يجد الناس الذين يحبهم ويقدرهم ، والذين يهتم برأيهم فيــه يتجنبونه ويتحاشونه ، هو أشبه ما يكون بالحرباء ، إذ بمقتضى قانون طبيعته يتخذ لون المكان الذى يلجأ إليه ، والمؤثرات المحيطة به هى التى تخلق أمياله ، ومبادئه ، وذوقه ، وأخلاقه ، ودياناته . . . وهكذا .

هو لا يخلق شيئاً من هذه الأشياء لنفسه ، قد يعتقــد أنه يخلق ، ولكن ذلك راجع إلى أنه لم يدرس الموضوع جيداً . هل رأيت أحداً من أتباع مذهب « البرسبتيريان » ؟

الشاب : رأيت كثيرين .

الشيخ : كيف حدث أن أصبحوا برسبتيريان ولم يصبحوا عماديين ؟ ولماذا

لم يكن العماديون كاثوليكا ، ولم يكن الكاثوليك بوذيين ، ولم يكن البوذيون هندوسيين ، ولم يكن الهندوس لادينيين ، ولم يكن اللادينيون روحانيين ، ولم يكن الروحانيون ملحدين ، ولم يكن الملحدون « مثوديست » ، ولم يكن « المثوديست » من أتباع كونفوشيوس ، ولم يكن أتباع كونفوشيوس من رجال جيش الخلاص ، ولم يكن رجال جيش الخلاص مُورْمُون . . . وهكذا ؟

الشاب : يمكنك أن تجيب عن سؤالك بنفسك .

الشيخ : هذه القائمة بأسماء المذاهب ليست سجلا لدراسات تستهدف البحث عن الحقيقة ، بل هي تبين ما يمكن أن يعمله ترابط المعانى ، فإن أنت عرفت جنسية شخص ما أمكنك أن تحزر نوع ديانته بشيء كثير من الدقة : إنجليزى — بروتستانتى ؛ أمريكى — بروتستانتى ؛ فرنسى ، إرلندى ، إيطالى ، نمساوى — كاثوليكى ؛ روسى — أرثوذكسى ؛ تركى — مسلم . . . . وهكذا دواليك .

وحين تعرف المذهب الدينى لشخص يمكنك استنتاج نوع الكتب التى يقرؤها حين يريد الاستزادة من نور الإيمان ، ونوع الكتب التى يتحاشاها حتى لا يلحقه من الإيمان أكثر مما يريد .

وفى أمريكا إذا عرفت لون الحزب الذى ينتمى إليه ناخب ، أمكنك أن تعرف الارتباطات القائمة فى ذهنه : كيف كوّن آراءه السياسية ، وأى الصحف يقرأ ليزداد إيماناً بهذه الآراء ، وأيها يتجنب عن عمد وإصرار ، وأى الاجتماعات العامة يحضر ليضيف إلى معرفته بالسياسة ، وعن أيها يتغيب اللهم إلا إذا أراد إعلان معارضته بقذف الأحجار .

نحن نسمع كثيراً عن أشخاص يقضون وقتهم فى « البحث عن الحقيقة » ، ولـكنى لم أسمع مطلقاً عن شخص واحد داوم البحث عنها بدون انقطاع أو توقف ، ولا أظن أنه وجد فى وقت من الأوقات إنسان هذا شأنه — وإن كنت قد رأيت عدداً من النـاس « اعتقدوا » مخلصين أنهم دائمو « البحث عن الحقيقة » . وبحثوا وثابروا ؛ بحثوا باهتمام وحذر ؛ تعمقوا فى البحث ؛ أظهروا منتهى النزاهة فيما استخلصوه من أحكام . . . حتى جاء وقت ظنوا فيه أنهم قد وصلوا إلى «الحقيقة» التى لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها — فـكانت هذه هى نهاية بحثهم .

كان الباحث من بين هؤلاء يقضى البقيـة الباقية من عمره فى اصطياد الحجج والبراهين التى يدفع بها الأذى عن « حقيقته » . فإن كان همه البحث عن الحقيقة السياسية فهناك مائة مذهب سياسى تتحكم فى سكان هذا العالم وهو لا بد واجد راحته فى أحد هذه المذاهب . وإن كان همه البحث عن « الدين الحق » الذى لا حق بعده ، فلا شك أنه سوف يصادف العقيدة التى ترضى مطالب نفسه فى إحدى الديانات البالغ عددها ثلاثة آلاف تقريباً ، والتى تتداولها العقول فى دنيا العقائد . وفى كلتا الحالتين حين « وجد الحقيقة » توقف عن البحث ، ولـكنه من ذلك اليوم ظل يرتق كل ما يظهر له فيهـا من فتحات قد تسهل على معارضيه أن ينالوا منه . لقد وجد من الباحثين عن الحقيقـة بشكل مؤقت يعجز المرء عن أن يحصيهم عداً — ولـكن هل تصادف أن سمعت عن إنسان بحث باستمرار إلى ما لا نهاية ؟ إن طبيعة الإنسان تجعل وجود مثل هذا الشخص أمراً مستحيلا .

ولكن لنعد إلى موضوعنا الأصلى (التدريب) . فكل حالة من حالات التدريب ليست إلا مظهراً من مظاهر فعل « المؤثر الخارجى » . وترابط المعانى يكوّن الجزء الأكبر من عملية التدريب ، والإنسان لا يخرج فى تكوينه عن مجرد تجمع لفعل المؤثرات الخارجية التى تعرّض لها ، وهذه المؤثرات إما أن تتسامى به إلى أعلى أو تنزل به إلى أسفل — ولكنها تدربه على كل حال ، وتترك فيه آثاراً تتجدد وتتزايد باستمرار فى كل لحظة من لحظات حياته .

الشاب : وعلى ذلك فإذا أوقعته ظروف الحياة فى وسط سيء فليس ثمة شيء يمكن أن يعمل لإنقاذه ، إذ بمقتضى الفكرة التى تقول بها سوف يتجه به تدريبه إلى أسفل سافلين .

الشيخ : لا يمكن إنقاذه ؟ لا يمكن إنقاذ هذه « الحرباء » ؟ هذا خطأ ياسيدى . إن الجزء الأكبر من نجاحه فى الحياة متوقف على هذا التشابه بينه وبين الحرباء ، متوقف على هذه القابلية للتلون بلون البيئة التى يوجد فيها . كل ما عليه هو أن يغير بيئته — يغير ارتباطاته ، ولكن الدافع الموجه نحو هذا التغيير لا بد أن يأتيه من الخارج — فهو لا يملك أن يخلق دوافعه من تلقاء نفسه .

فأحياناً يمكن لشيء طارىء ، عارض ، تافه أن يمده بالدافع الموجه الذى يضعه فى بداية طريق جديد ليحاول تحقيق مثل أعلى جديد فمثلا قد ينجح تعليق عابر من فتاته — « يقال لى بأنك جبان » — فى رى البذرة التى سوف تنبت ثم تورق ثم تينع وتنتهى بثمار تدعو للدهشة ، فى ميادين الحرب . وتاريخ الإنسان ملىء بأمثال هذه الحوادث . فحين كسرت ساق لجندى مستهتر عربيد وجد نفسه يتجه بكليته نحو مؤثرات دينية

أمدته بمثل عليا جديدة . من هذا الحادث خرج نظام الجيزويت الذى نجح فى زعزعة عروش ، وتغيير سياسات والقيام بأعمال أخرى هائلة خلال القرنين الماضيين — ولسوف يستمر .

والقراءة العارضة لكتاب أو لفقرة فى جريدة يمكن أن تكون تغييراً تاماً لطريقة حياته .

الشاب : هل تقصد من هذا إلى التلميح لخطة بالذات ؟

الشيخ : ليست هذه الخطة جديدة — بل هى قديمة ، قديمة قدم الإنسان على الأرض .

الشاب : وما هى ؟

الشيخ : هى مجرد وضع فخاخ للناس ، فخاخ تحوى طعماً من « الدوافع الموجهة نحو مثل عليا طيبة » . هذا هو ما يعمله موزعو الرسائل الدينية ويعمله الوعاظ والمبشرون ، وهو أيضاً ما يجب على الحكومات أن تعمله .

الشاب : ألا تعمل الحكومات ذلك ؟

الشيخ : أحياناً تعمل وأحياناً لا تعمل . فالحكومات تعزل المريض بالجدرى عن الأصحاء ، ولكن فى معالجتها للجرائم تضع الصحيح فى قلب منطقة الوباء مع المرضى . بمعنى أن الحكومات تضع المبتدئ مع المجرم الذى تعوّد الإجرام . ولعل مثل هذا الإجراء كان يصبح مقبولا لو أن الإنسان كان بطبيعته ميالاً للخير ، ولكن الواقع غير ذلك . فتكون النتيجة أن تجعل الارتباطات الجديدة من المبتدىء شخصاً أسوأ بكثير مما كان حين دخل السجن — وهذا فى حد ذاته فرض لعقوبات بالغة القسوة على أناس أبرياء نسبياً .

والحكومات بوجه عام تقسو على الأبرياء أحياناً ، فالحكومة تعدم القاتل شنقاً — وهذه العقوبة بسيطه ؛ ولكنها على بساطتها — بالنسبة للجريمة — تكاد تقتل أهله حزناً عليه — وهذه عقوبة هائلة توقع على الأبرياء .

والحكومة تسجن من يعتدى على زوجته بالضرب ، فيجد فى السجن طعاماً ومأوى لابأس بهما ، بينمازوجته وأطفاله الأبرياء تتركهم الحكومة ليموتوا جوعاً خارج السجن .

الشاب : هل تؤمن بالنظرية القائلة بأن الإنسان يتمتع بإدراك فطرى للخير والشر ؟

الشيخ : آدم نفسه لم يكن له هذا الإدراك .

الشاب : ولكن هل حصّل الإنسان هذه المقدرة من بعده ؟

الشيخ : لا ، لا أعتقد أن الإنسان يتمتع بمقدرة فطرية من أى نوع . هو يأتى بكل أفكاره وكل إحساساته من الخارج . أنا أكرر هذه العبارة على أمل أن أطبعها فى نفسك إلى الحد الكافى لإثارة اهتمامك فتلاحظ وتختبر لنفسك وترى إذا كانت سليمة أم زائفة .

الشاب : من أين لك إذن هذه الأفكار الفاسدة ؟

الشيخ : من الخارج . أنا لا أخترعها ، هى تتجمع من مئات المصادر التى لا أذكرها والجزء الأكبر منها يتجمع بشكل لا شعورى .

الشاب : ألا تؤمن بأن الله يمكنه أن يخلق إنساناً شريفاً بسليقته ؟

الشيخ : بلى أومن بذلك ، ولكنى فى نفس الوقت أعلم أنه لم يخلق إنساناً واحداً بهذه الصفة .

الشاب : لقد لاحظ من هو أعقل منك حقيقة سجلها فى هذه العبارة « الإنسان الشريف » هو أسمى ما خلق الله .

الشيخ : هو لم يسجل حقيقة وإنما سجل زيفا ، الجملة جميلة ، حسنة الوقع — ولكنها ليست صحيحة ، فالله يخلق الإنسان وفيه «احتمالات» لأن يكون شريفاً أو غير شريف . ثم يأتى ترابط المعانى ويغذى الاحتمالات — أما فى هذا الجانب أو فى ذاك ، والنتيجة تبعاً لذلك إما رجل شريف ، أو رجل غير شريف .

الشاب : والرجل الشريف لا يحق له أن . . .

الشيخ : يفخر ؟ لا . إلى متى أجدنى مضطراً لتكرار ذلك ؟ هو لم يخلق صفة الشرف التى يتصف بها .

الشاب : والآن أسألك أية فائدة ترجى من تدريب الناس على أن يحيوا فى ظلال الفضيلة ؟ ماذا يعود عليهم من وراء ذلك ؟

الشيخ : الرجل الفاضل يجنى الشىء الكثير من وراء فضيلته — وهذا هو المهم . . الكسب لنفسه أولا . فهو ليس مصدراً للخطر ولا مبعثاً للفساد بالنسبة لجيرانه ، أى أن فضيلته فى هذه الحالة تنفع جيرانه — وهذا هو الشىء المهم فى نظرهم .

فالفضيلة تجعل الحياة سهلة بشكل نسبي لكل من الطرفين ، وإهمالها كنوع من التدريب يجعل الحياة سلسلة من الأخطار والمخاوف لكل منهما .

الشاب : سبق لك أن قلت بأن التدريب هو كل شىء بل هو الإنسان نفسه — لأن الإنسان يتشكل بشكل تدريبه .

الشيخ : ذكرتُ التدريب بالإضافة إلى شىء آخر ؛ ولكن لندع هذا الشىء الآخر جانباً الآن ، ماذا كنت تريد أن تقول ؟

الشاب : عندنا خادمة عجوز التحقت بخدمتنا منذ اثنتى وعشرين سنة . لم

يكن فى تصرفاتها شيء يدعو للمؤاخذة ، ولكنها الآن أصبحت كثيرة النسيان . كلنا نحبها ونعطف عليها ، وكلنا نعترف بأنها لا تملك منعا لعاهة جلبها عليها كبر سنها ، وما من أحد بين أفراد الأسرة يؤنبها على نسيانها ، وإن كنت أنا أفعل ذلك فى بعض الأحيان ، إذ لا أقدر على التظاهر بضبط النفس . لعلك تسألنى هل أحاول ضبط نفسى ؟ نعم أحاول .

ولكن حين كنت على وشك إرتداء ملابسى صباح اليوم ، لم أجد الملابس النظيفة قد أعدت فى انتظارى . أثارنى ذلك — وما أسهل وأسرع استثارتى فى الصباح الباكر ! قرعت الجرس ، وبدأت فى الحال أحذر نفسى من أن أظهر أية علامة من علامات الغضب ، وعزمت على أن أكون حريصاً ، وأن أتحدث برفق . أعددت عدتى للموقف بكل عناية ، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فصغت فى ذهنى العبارة التى سوف أوجهها إليها : « لقد نسيت الملابس النظيفة ياجين » . وبمجرد دخولها من الباب فتحت فمى لأقول تلك العبارة ، ولكن فيضا من الغضب استولى علىّ وغمرنى قبل أن أقدر على كتمانه ، فوجدتنى أؤنبها بقسوة قائلا : « لقد نسيت الملابس مرة أخرى ! » .

وأنت تقول بأن الإنسان يفعل دائماً الشيء الذى « يرضى السيد المسيطر على كيانه من الداخل » فمن أين إذن أتتنى الرغبة فى إعداد ما أعددت من ألفاظ أقصد بها تجنيب الخادمة ألم التأنيب ؟ وهل أملى علىّ هذه الرغبة نفس « السيد الذى لا يهمه إلا أمر نفسه أولا وقبل كل شيء » .

الشيخ : بدون شك . ليس هناك مصدر آخر لأى دافع كائن ما كان . فأنت اتخذت العدة لإنقاذ الفتاة من التأنيب ، ولكن هذا يأتى فى المرتبة الثانية ، أما فى المرتبة الأولى فتأتى رغبتك فى إنقاذ نفسك عن طريق إرضاء ذلك السيد .

الشاب : ماذا تعنى ؟

الشيخ : هل حدث أن رجاك أحد من أعضاء الأسرة فى أن تحتفظ بهدوئك فلا تلق بالسباب جزافاً فوق رأس الخادمة المسكينة ؟

الشاب : نعم . رجتنى أمى .

الشيخ : هل تحبها ؟

الشاب : نعم . . . . . أعبدها .

الشيخ : وهل تعمل كل ما تقدر عليه لإرضائها ؟

الشاب : إن من دواعى سرورى أن أعمل أى شىء لإرضائها ؟

الشيخ : آه ! ! . . . . . إذن فأنت تعمل ما تعمل من أجل « الأجر » ، من أجل « المكسب » ، . . . « الربح » . والآن خبرنى أى ربح تنتظره ، بل أى ربح يأتيك فعلا من هذه الصفقة ؟

الشاب : يأتينى أنا شخصياً ؟ لا شىء ، إرضاؤها فيه الكفاية .

الشيخ : من هذا يتضح أن غرضك الأول لم يكن تجنيب الفتاة ألم التأنيب ، بل إرضاء والدتك . كما يتضح أن إرضاء والدتك يسبب لك ارتياحاً ولذة . أليس هذا هو الربح الذى يعود عليك من صفقتك . أليس هو الربح الحقيقى . . . « الربح الأول » .

الشاب : حسناً استمر .

الشيخ : فى كل معاملاتك يقيم « السيد الداخلى » من نفسه رقيباً يضمن حصولك أنت على « الربح الأول » وإلا ألغيت الصفقة .

الشاب : ولكن إذا كنت أنا مهتما وراغباً فى تحصيل ربحى الخاص من الصفقة فلماذا إذن سمحت لنفسى بفقده حين فقدت هدوئى وصحت فى وجه الخادمة ؟

الشيخ : لـكى تحصل على ربح آخر فاقه فى قيمته .

الشاب : وأين كان ذلك !

الشيخ : مختبئاً خلف مزاجـك الفطرى يتحين الفرص للظهور ، غلبت عليك طبيعتك الموروثة ... غلبت بشكل مفاجىء ، وقفزت إلى المقدمة ، وفى هذه اللحظة كان أثرها أقوى بكثير من أثر أمك . عطلت طبيعتُك تعاليمَ أمك ، وفى هـذا المثال الذى نحن بصدد كنت تتحرق شوقاً إلى التأنيب ، فأنبت وسرّك مافعلت ، أليس كذلك ؟

الشاب : بلى . لمدة قصيرة جداً . . . . ربع ثانية .

الشيخ : وهذا يثبت من جديد صحة ما ذكرت لك . فالشىء الذى يمنحك أكبر قدر من الارتياح أو اللذة فى أى لحظة (أو جزء من لحظة) يجبرك على فعله قبل غيره ، وإن عليك دائماً أن ترضى كل ما يجد من نزوات تفرضها عليك القوة التى تسيرك من الداخل .

الشاب : ولـكن حين اغرورقت عينا الخادم العجوز بالدموع خيّـل لى أنى لا أكون مغالياً لو قطعت يدى ندماً على ما فعلت .

الشيخ : هذا حق ، لقد أسأت إلى نفسك . الا ترى معى أنك سببت الألم لنفسك أولا . فليس هنالك شىء يمكن أن يحتل المـكان الأول من الأهمية بالنسبة لإنسان سوى النتائج التى يترتب عليها كسبه أو خسارته — وكل ما خلا ذلك ذو أهمية ثانوية .

لقد غضب « سيدك » — غضب ضميرك — بالرغم من أنك أطعته حين شتمت ، طلب ندماً عاجلا ، فأطعت من جديد ، كان عليك أن تطيع ، فليس ثمـة فرار من أوامره ونواهيه . هو سيد قاس ولـكنه

متقلب ، يغير نواياه فى جزء من الثانية . ولا بد أن تكون على استعداد للطاعة . . . ولسوف تطيعه دائماً فإن فرض عليك الندم حتى يرضى وجدت نفسك تقدم الندم طوعاً كما طلبه . يجب أن يدلل ، يرفه ، يسترضى . استخدم ما شئت من ألفاظ .

الشاب : والتدريب ؟ ما فائدة التدريب إذن ؟ ألم تحاول أمى أن تدربنى بشكل يكفل عدم صياحى فى وجه الخادم فيما بعد ؟

الشيخ : هل نجحت يوماً فى كتمان شتائم كنت تود أن تقذف بها أحداً ؟

الشاب : نعم ، مراراً .

الشيخ : مرات أكثر هذا العام منها فى العام الماضى ؟

الشاب : نعم أكثر بكثير .

الشيخ : ولعلها فى العام الماضى أكثر منها فى سابقه ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : إذن فهناك تقدم كبير فى خلال السنتين ؟

الشاب : نعم بدون شك .

الشيخ : إذن فقد أجبت بنفسك عن سؤالك ، هل رأيت أن للتدريب فائدة ، ثابر ... وثابر بأمانة . . . فأنت تتقدم .

الشاب : وهل أبلغ من الإصلاح حد الكمال ؟

الشيخ : نعم ، سوف تصل إلى أقصى حد يتسع له استعدادك .

الشاب : استعدادى ؟ ماذا تعنى ؟

الشيخ : تذكر أنك قلت بأنى سبق أن قررت أن التدريب هو كل شىء ، وتذكر أنى أصلحت من عبارتك فقلت « بل التدريب مضافاً إليه شىء آخر » هـذا الشىء الآخر هو « المزاج » — أى الاستعداد الذى

ولد معك ، لا يمكنك اقتلاع استعدادك . . . لا يمكنك استبعاد ذرة منه ، كل ما يمكنك هو أن تكبته وتستبقيه هادئاً إلى حين ، هل أنت عصبي المزاج .

الشاب : نعم :

الشيخ : لن يتيسر لك الخلاص من هذا المزاج ، ولكن بمراقبته يمكنك أن تكبحه بدون انقطاع تقريباً . وجود هذا المزاج يرسم لك الحد الذى يتسع له استعدادك . فإصلاحك لن يصل تماماً إلى حد الكمال ، لأن مزاجك سوف يغلب عليك من وقت لآخر . ولكنك سوف تقترب من الكمال بقدر المستطاع — وها أنت ذا بالفعل تقدمت تقدماً ذا بال ، ويمكنك أن تتقدم أكثر من ذلك . إن للتدريب فائدة كبيرة ، ولن يمضى وقت طويل حتى تصل إلى مرحلة جديدة من مراحل النضوج وعندها يصبح تقدمك أسهل لأنه سوف يتبع قاعدة أسهل .

الشاب : وضح . . . اشرح .

الشيخ : أنت تمتنع عن السب الآن لأنك ترضى نفسك عن طريق إرضاء أمك . ولن يطول تدريبك حتى ترى أن مجرد انتصارك على مزاجك يرضى كبرياءك ، ويزجى إليك نوعاً من الارتياح واللذة أمتع بكثير مما يبعثه فيك رضا أمك عنك . فى ذلك الوقت سوف تصل إلى نفسك بطريق مباشر بدلا من أن تصل إليها خلال الطريق الملتوى الذى يدخل والدتك فى الاعتبار . وهذا يبسط الموضوع بدون شك كما أنه يقوى الدافع .

الشاب : يا إلهى ! ولكنى سوف لا أصل إلى مرحلة أعطف فيها على الخادمة من أجل نفسها أولا ، وليس من أجل نفسى ؟

الشيخ : ولم لا ؟ . . . فى الآخرة على ما أعتقد .

الشاب : (بعد لحظة تفكير) المزاج ؟ . . . الآن آمنت بأهميته . من المؤكد أنه عامل ذو أثر فعال . فأمى مثلا أميل للتروى وليست عصبية المزاج ، حين ارتديت ملابسى ذهبت إلى حجرتها ولكنها لم تكن هناك . ناديتها فأجابتنى من الحمام ، سمعت صوت الماء وهو ينساب ، فسألت ما الموضوع ، فأجابتنى بمنتهى الهدوء إن « جين » نسيت إعداد الحمام لها وإنها لذلك تتولى إعداده بنفسها ، أظهرت استعدادى لدق الجرس إن أرادت ، ولكنها قالت : « لا . أرجوك ألا تفعل ذلك فسوف يؤلمها أن تواجه بحادث جديد من حوادث النسيان عندها ، وسوف تكون المواجهة بمثابة التوبيخ ، وهى لم تفعل ما تستحق من أجله كل هذا — وهل نؤاخذها على خطأ جلبته عليها ذاكرتها ؟ » والآن أتساءل هل لأمى « سيد داخلى » يسيطر على كيانها من الداخل ، وأين كان حينئذ ؟

الشيخ : كان فى مكانه يبحث عن أمنه ، وسلامته ، ولذته ، ورضاه ، فلو أن الفتاة تألمت لسبب ذلك الألم لأمك ، ولو كان الأمر غير ذلك لاستدعيت الفتاة لتلقى أقذع اللعنات والشتائم ، أعرف من النساء من كن ينعمن باللذة رقم « ١ » لو أنهن استدعين « جين » . ونساء هذا شأنهن ما كن ليترددن فى دق الجرس مطيعات بذلك قانون تكوينهن وقانون تدريبهن — وهذان القانونان يطيعان بدورهما « السيد الداخلى » لكل واحدة منهن .

ومن المحتمل جداً أن جزءاً من هدوء والدتك أتى عن طريق التدريب — التدريب الطيب طبعاً — الذى يجعل وظيفته العليا ما يأتى :

« كل مرة ينـال فيها الإنسان نوعاً من الارتياح نتيجة لعمله يكون هذا العمل قد حقق فائدة ما لغيره من الناس » .

الشاب : لو فرضنا أنك تقوى أن تلخص فى نصيحة واحدة خطتك لتحسين حال الإنسانية بوجه عام فماذا يكون نص هذه النصيحة ؟

نصـــيحة

الشيخ : « احرص على أن تهذب مثلك العليا بحيث تتسامى بها شيئاً فشيئاً إلى ذروة ترى فيها لذتك القصوى فى سلوك يتحتم أن يزجى الخير إلى جارك وإلى مجتمعك فى نفس الوقت الذى يرضى فيه نفسك أولا » .

الشاب : هل هذه عقيدة جديدة ؟

الشيخ : كلا .

الشاب : هل عـلّمها أحد من قبل ؟

الشيخ : لمدة عشرة آلاف سنة .

الشاب : من عـلّمها ؟

الشيخ : كل الأديان العظيمة — كل الشرائع المقدسة .

الشاب : إذن فليس هناك شىء جديد فى الموضوع ؟

الشيخ : لا . بل هناك . وهو أن هذه الحقائق ذكرت هذه المرة بصراحة ولم يفعل أحد ذلك من قبل .

الشاب : ماذا تعنى ؟

الشيخ : أما وضعتك أنت فى المكان الأول ، ووضعت جارك ومجتمعك فيما بعد ذلك ؟

الشاب : نعم . هذا فرق فى الواقع .

الشيـخ : هو الفرق بين الـكلام المستقيم والـكلام الملتوى ، الفرق بين الصراحة والإبهام .

الشاب : اشرح . . . .

الشيـخ : الشرائع الأخرى تقدم لك مائة رشوة حتى تكون خيّراً . فهى تسلم بأن السيد الداخلى الذى يسيطر على كيانك يجب أن يسترضى أولا . كما تسلم بأنك لا تعمل شيئاً إلا من أجله . ولـكنها لا تلبث أن تغير موقفها تماماً فتطلب منك أن تعمـل « الخير من أجل الآخرين » قبل أن تعمله من أجل نفسك ، وأن تؤدى ما عليك من واجبـات « من أجل الواجب ليس إلا » وأن تقوم بأعمال تنطوى على « التضـحية بالنفس » ومن ذلك ترى أن البداية واحدة فى جميع الحالات — اعتراف بالمَـلِك المطلق المتعسف الذى يستقر بين جنبى كل آدمى ، والذى ننحنى أمامه خُـشّـعاً نسترضيه ونسترحمه ، ولـكن المذاهب الأخرى تهرب وتتسرب ، وتحيد عن موقفها الأول . وبطريقـة تعوزها الصراحة ويعوزها الثبات ، بطريقة غير منطقية ، تأخذ فى الظهور بمظاهر ليست من حقيقتها فى شىء ، فتوجه دعوتها نحو استثارة الدوافع الثانوية للإنسان ، بل ونحو استثارة دوافع لا وجود لها بالمرة — فبذلك تفرض على هذه الدوافع أهمية ليست لها . بينما فى نصيحتى التى ذكرت لك منذ لحظات تجدنى مقيما على رأيى الأول بشكل منطقى ثابت ، فأنا أضع مطالب « السيد الداخلى » فى المـكان الأول وأبقى عليها حيث هى .

الشاب : إذا سلمنا جدلا بأن تعاليمك والتعاليم الأخرى تتجـه نحو هدف واحد وتحقق هذا الهدف ، تحقق « الحياة الطيبة » فهل لتعاليمك ميزة تفضل بها غيرها ؟

الشيخ : نعم ، ميزة واحدة . . . . ميزة كبيرة ، وهى أن تعاليمى ليس بها مُعَمَّيات ولا مغالطات . وحين يحيا الإنسان حياة طيبة كريمة وهو مؤمن بها ، فلن تخدعه أكاذيب تحاول تفسير الدافع الرئيسى الذى يوجه سلوكه — بينما فى حالة التعاليم الأخرى يصادف مثل هذه الأكاذيب .

الشاب : وهل هى ميزة ؟ أن تحيا حياة طيبة لسبب حقير . فى الحالات الأخرى يحيا الإنسان حياة طيبة وهو مقتنع فيما بينه وبين نفسه أنه يحياها لسبب طيب . أليست هذه ميزة للعقائد القديمة ؟

الشيخ : ربما . وكذلك يمكنه أن يستمتع بنفس الميزة (ميزة خداع الذات) حين يظن بينه وبين نفسه بأنه دوق ، ويحيا حياة دوق ، ويظهر بكل ما يقتضيه مظهر الدوقية من أبهة — بينما الحقيقة هى أنه ليس دوقاً بالمرة ؛ ويمكنه اكتشاف ذلك لو أنه رجع إلى سجلات الألقاب فى الدولة .

الشاب : ولكنه على كل حال مجبر على القيام بدور دوق ، فهو يخرج من ماله أقصى مبلغ يمكن أن يخصص للصدقات ، ومثل هذا العمل يفيد المجتمع .

الشيخ : كان يمكنه أن يفعل ذلك بدون لقب الدوقية .

الشاب : أحقاً كان يمكنه ؟

الشيخ : ألا ترى إلى أين أوصلتك المناقشة ؟

الشاب : إلى أين ؟

الشيخ : إلى حيث تقف موقف التعاليم الأخرى ، إلى حيث تعتقد بأن من كرم الأخلاق أن ندع دوقاً جاهلا يوزع صدقات لا يقصد من ورائها إلا مجرد الظهور حتى يرضى بذلك كبرياءه (وهذا ولا شك دافع حقير)

ومع ذلك لا ننبهه إلى حقيقة دوافع الإحسان عنــده خشية أن يقفل خزائنه وينقطع عن عمل الخير لو أنه عرف المصدر الفعلى لنزعات الخير .

الشاب : ولــكن أليس من الأوفق تركه جاهلا كنه هذه النزعات طالما هو يظن أنه يعمل للخير من أجل الآخرين ؟

الشيخ : ربما . وهذا هو موقف التعاليم الأخرى ، فهى تدخل الرياء فى نطاق الأخلاق الطيبة ، إذا كنا نكسب من وراء هذا الرياء عملا طيباً وسلوكا مرضياً .

الشاب : أعتقد أن تعاليمك التى تقول بأن الإنسان يفعل الخير إرضاء لنفسه أولا بدلا من أن يفعــل الخير من أجل الخير . . . . مثل هذه التعاليم لو اتبعها جميع الناس لانقطعوا عن فعل الخير :

الشيخ : هل أديت صدقة فى هذه الأيام الأخيرة ؟

الشاب : نعم أديتها فى هذا الصباح .

الشيخ : أرجو أن تذكر التفاصيل .

الشاب : احترق كوخ المرأة الزنجية العجوزالتى كانت مربية لى فى طفولتى ، والتى أنقذت حياتى مرة معرضة حياتها للخطر . . . فجاءتنا هذا الصباح تطلب معونة مالية تمكنها من بناء كوخ آخر .

الشيخ : وهل أعنتها بالمال ؟

الشاب : طبعاً.

الشيخ : هل سرك أن كان المال فى حوزتك ؟

الشاب : المال ؟ لم يكن لدى المبلغ الـكافى فبعت حصانى .

الشيخ : هل سرك أن تجد لديك حصاناً يفى بالغرض ؟

الشاب : بالطبع ، لأنى لو لم أملك هذا الحصان لعجزت عن تقديم المساعدة ولاقتنصت والدنى الفرصة لإعانة « سالى » المسكينة .

الشيخ : أو سرك كثيراً أن وجدت مخرجا من مأزقك ؟

الشاب : فعلا سررت .

الشيخ : إذن . . . . .

الشاب : انتظر ! أعرف قائمة الأسئلة التى عندك وبإمكانى أن أجيب على كل واحد منها بدون أن تضيع وقتك فى إلقائها . ولسوف ألخص الموضوع فى نقطة واحدة .

أحسنت إلى المسكينة لأنى أعلم أن عملى سوف يسبب لى لذة وراحة كبيرتين ؛ ولأن سرورها وشكرها المؤثرين سوف يسببان سرورى أنا ؛ ولأن الصورة التى ارتسمت فى ذهنى لهذه المرأة وقد غدت من جديد سعيدة راضية من بعد نكبتها ملأتنى وسوف تملأنى بالسعادة والرضا . فعلت هذا وعيونى مفتوحة تماما ، أعلم تمام العلم أنى إنما أبحث أولا وقبل كل شىء عن نصيبى من الأرباح . والآن ها أنذا قد اعترفت — استمر .

الشيخ : ليس لدى ما أقوله بعد هذا ، فأنت قد وفيت الموضوع حقه . ولكن هل تعتقد بأنه كان من المحتمل دفعك لأن تفعل أكثر مما فعلت لإنقاذ « سالى » من نكبتها — أو لأن تفعل نفس ما فعلت بحماس أكثر — لو أنك توهمت أن عملك لم يكن إلا من أجلها هى ؟

الشاب : لا ! ما من شىء كان يمكنه أن يزيد من قوة ذلك الحافز الذى تملكنى والذى لم يترك لى ثمة سبيلا للمقاومة ، فلقد وصل فى عنفه إلى أبعد مدى .

الشيخ : حسنا ، أراك قد بدأت تتشكك ، بدأت ترى مى أن الإنسان

حين يكون الدافع الذى يدعوه لعمل ما أقوى من الدافع الذى يدعوه لأى عمل آخر فإنه لا شك قائم بالعمل ذى الدافع الأقوى سواء أكان خيراً أم شراً .

فإن كان خيراً فلن تقدر كل الأكاذيب التى يلوذ بها أدعياء الحكمة على إضافة ذرة واحدة إلى قوة الدافع . كما أنها لن تقدر على إضافة ذرة واحدة إلى الشعور بالارتياح الذى يجنيه من عمله .

الشاب : وإذن فأنت تعتقد أن الرغبة فى فعل الخير كما نعرفها فى نفوس الآدميين لن يقللها القضاء على الوهم القائل بأنهم إنما يقومون بالأعمال الطيبة من أجل الآخرين وليس من أجل أنفسهم .

الشيخ : هذا هو ما أؤمن به كل الإيمان .

الشاب : ألا يبدو لك أن هذه التعاليم قد تقلل من كرامة العمل الطيب ؟

الشيخ : لو كان للزيف كرامة لسلمت لك بما تقول . ولكن تعاليمى تستبعد كل ما هو زائف .

الشاب : وما ذا بقى للأخلاق ليعمله ؟

الشيخ : أن يعلم بدون تحفظ العقائد التى يقتصر عمله الآن على تقديمها بإحدى يديه واستردادها باليد الأخرى . إعمل الخير من أجل نفسك أولا ، وليسعدك أن تعلم أن جارك سوف يشاركك فى النتائج الطيبة لعملك .

الشاب : أرجو أن تعيد نص النصيحة التى ذكرتها من قبل .

الشيخ : « احرص على أن تهذب مثلك العليا بحيث تتسامى بها شيئاً فشيئاً إلى ذروة ترى فيها لذتك القصوى فى سلوك يتحتم أن يزجى الخير إلى جارك وإلى مجتمعك فى الوقت الذى يرضى فيه نفسك أولا » .

الشاب : هل تعتقد أن كل عمل من أعمال الإنسان يصدر عن مؤثر خارجى ؟

الشيخ : نعم .

الشاب : لنفرض أنى صممت على أن أسلب شخصاً ماله . . . . فأنت لا ترى أن مثل هذا التصميم من بنات أفكارى ؛ ولكنه يأتى من الخارج ... أليس كذلك ؟

فمثلا أراه ممسكا ببعض النقود أو الأوراق المالية وهذا يدفعنى إلى ارتكاب الجريمة .

الشيخ : هذا المؤثر وحده لا يكفى ، هو ليس إلا آخر مؤثر خارجى يأتى فى نهاية موكب حافل من المؤثرات الإعدادية التى تمتد خلال مرحلة قد تبلغ سنوات . فليس بإمكان مؤثر خارجى منفرد بأن يجعلك تتصرف تصرفا يتنافى مع تدريبك ؛ بل أقصى ما يمكن أن يعمله ، هو أن يهيئ أمام عقلك طريقاً جديداً للتفكير ، كما يجعل هذا العقل متفتحاً لاستقبال مؤثرات جديدة — ومثال هذا قصة « اجناتيوس لويولا » . وفى الوقت المناسب سوف تتمكن هذه المؤثرات الجديدة من تدريب عقلك إلى حد يصبح فيه إذعانك للمؤثر النهائى متمشياً مع أخلاقك الجديدة .

والآن سوف أُعيد عرض الموضوع بطريقة تكفل وضوح نظريتى على ما أعتقد .

هنا سبيكتان من الذهب الخالص . وهما تمثلان شخصيتين تم تهذيبهما إلى أقصى حد ممكن من الكمال الخلقى خلال سنوات من المثابرة على التدريب الصحيح . فعلى فرض أنك أردت أن تكسر هاتين الشخصيتين القويتين وتفسد ذلك التماسك الذى تشهده فيهما ، فأى مؤثر تسلطه على هاتين القطعتين من الذهب الخالص ؟

الشاب : يمكنك أن تتم الإجابة على هذا السؤال بنفسك استمر .

الشيخ : لنفرض أنى ساطت على إحدى القطعتين تياراً من بخار الماء خلال ساعات طويلة متوالية فهل تترتب على ذلك نتيجة تستحق الذكر ؟

الشاب : لا .

الشيخ : لماذا ؟

الشاب : لأن تيار البخار لا يمكنه أن ينال من مثل هذه المادة .

الشيخ : البخار « مؤثر خارجى » ، ولكنه لا أثر له لأن الذهب ليس عنده استعداد للتأثر به — فتبقى القطعة كما هى ، ولكن لنفرض أننا أضفنا إلى بخار الماء بعضا من بخار الزئبق وسلطنا هذا التيار الجديد على قطعة الذهب فهل تحدث فى الحال نتيجة ملحوظة ؟

الشاب : لا .

الشيخ : الزئبق فى هذه الحالة مؤثر خارجى والذهب (نظرا لطبيعته . . . نظرا لمزاجه واستعداده) ليس فى طاقته أن يمر بهذا المؤثر « بدون اكتراث » . فالزئبق يثير « اهتمام » الذهب . وإن كنا لا نلحظ ذلك فى أول الأمر لأن تسليط المؤثر لمرة واحدة لا يتسبب عنه ضرر ، ولكن لنستمر فى تسليط التيار ولنفترض أن كل دقيقة تقوم مقام سنة ، ففى نهاية عشر دقائق أو عشرين دقيقة (تقوم مقام عشر سنين أو عشرين سنة) تجد السبيكة وقد « تشربت » بالزئبق . . . وقد ضاعت فضائلها . . . . وانحلت شخصيتها . وفى النهاية تجد هذه الشخصية على استعداد لأن تذعن « لإغراء » ما كانت لتعيره أدنى اهتمام منذ عشر أو عشرين سنة . والآن سوف أضغط هذه السبيكة بين أصابعى جاعلا ذلك بمثابة توجيه إغراء إلى الشخصية المنحلة فهل ترى ماذا كانت النتيجة ؟

الشاب : نعم . تفتتت السبيكة إلى ذرات أفهم الآن أن المؤثر الفرد لا يؤدى إلى نتيجة ذات بال ، وإنما يفعل ذلك مؤثر يأتى فى نهاية عملية انحلال بطىء يسببها تجمع تدريجى لمؤثرات متشابهة متعاقبة . وأرى الآن كيف أن الدافع المفرد الذى يحفزنى لاستلاب مال الرجل ليس هو السبب الأساسى لمثل هذا العمل ، بل هو آخر حلقة فى سلسلة إعدادية طويلة . ولعلك تتكرم بتوضيح هذا كله بقصة صغيرة .

قصـــة

الشيخ : يحكى أن أخوين توأمين كانا يعيشان فى مقاطعة نيوانجلاند ، وكانا متشابهين كل التشابه من حيث المظهر الشخصى والاستعداد العقلى والكمال الخلقى . كانا من أطيب النماذج بين زملائهما من تلاميذ المدرسة . وفى سن الخامسة عشرة سنحت الفرصة أمام أحدهما ويدعى جورج لكى يعمل كبحار مبتدىء فى سفينة صيد ، وأقلعت به السفينة فى المحيط الهادى ، وبقى شقيقه هنرى فى بيت أسرته بالقرية ، وفى سن الثامنة عشرة أصبح جورج بحاراً ذا خبرة ومران ، وغدا هنرى معلماً فى « مدارس الأحد » . وفى سن الثانية والعشرين نجد جورج وقد أدمن على تعاطى الخمر والشجار بفعل الحياة المنحلة التى كان يحياها على ظهر السفينة وفى فنادق البحارة فى الموانىء الأوربيـة والموانىء الشرقية ، ثم لا نلبث أن نلقاه فى هونج كونج صعلوكا طريداً لا عمل له ، هذا بينما رقى أخوه هنرى إلى وظيفة (مُشرف) فى مدارس الأحـد ، وفى السادسة والعشرين لم يكن جورج إلا أفاقاً متشرداً على حين أصبح هنرى راعياً لكنيسة القرية .

عاد جورج إلى موطنه ونزل ضيفاً على أخيه هنرى ، وفى إحدى الأمسيات مر بالبيت رجل ومضى فى طريقه إلى أن غاب فى منعطف قريب ، فالتفت هنرى إلى أخيه وقال بابتسامة تنم عن طيبة : « رغم أن هذا الرجل لا يقصد إساءتى بحال من الأحوال إلا أن مشهده يذكرنى دائماً بفقرى المدقع لأنه يسير محملا بأكوام المال ويمر من هنا فى كل ليلة من ليالى حياته » .

كان هذا المؤثر الخارجى . . . . كانت هذه الملاحظة العارضة كافية بالنسبة لجورج ، ولكنها لم تكن وحدها السبب فى جعله يترصد ذلك الرجل ثم يسلبه ماله ؛ بل كل قيمتها هى أن تمثلت فيها نتيجة عملية تجمع المؤثرات المماثلة لمدة إحدى عشرة سنة ، ولهذا ترتب عليها ذلك الحادث الذى مهد له الاختبار الطويل لتلك المؤثرات .

لم يخطر ببال هنرى أن يسلب الرجل — فسبيكته تعرضت للبخار النقى فحسب ، ولكن جورج تعرض لبخار الزئبق .

الفصل الخامس

الآلة من جديد

ملاحظة :

حين تسأل مسز و : كيف يسمح مليونير لنفسه بأن يتبرع بدولار واحد للكليات والمتاحف بينما يقاسى أحد بنى الإنسان آلام الجوع والحرمان ، فقد أجابت على سؤالها بنفسها . فشعورها الكريم نحو الفقراء يدل على أن لها فى دنيا الإحسان معاييرها الخاصة ؛ وعلى ذلك فقد سلمت ضمناً بحق المليونير فى أن تكون له معاييره الخاصة كذلك . وبما أنها تطالبه بأن يقبل معاييرها ، فهى بعملها هذا إنما تطالب نفسها بقبول معاييره . والإنسان دائما ينظر إلى أسفل حين يتولى اختبار معايير الغير ، ويستحيل عليه أن يجد منها ما يحتاج اختباره للنظر إلى أعلى .

* * *

الشاب : أتعتقد حقاً أن الإنسان ليس سوى آلة ؟

الشيخ : نعم .

الشاب : وأن عقله يعمل بشكل أوتوماتيكى غير خاضع لسيطرته — أى تتشكل فيه الأفكار عن غير قصد ؟

الشيخ : نعم . العقل يعمل بنشاط دائم وبدون توقف فى كل لحظة من لحظات اليقظة ، أما اتفق لك أن قضيت ليلك ساهداً تتقلب ، تأمر

ثم ترجو ثم تستعطف عقلك أن يكف عن العمل وأن يتركك تنام ؟ أنت الذى تعتقد أن عقلك خادمك طوع أمرك ، يفكر فيما تريده أن يفكر فيه ، ويمتنع حين تأمره بالامتناع . إن اختار أن يعمل فليس ثمة وسيلة لإيقافه لحظة . وإن أذكى الناس لن يقدر على إمداد عقله بموضوعات لا تشغله بالفعل ؛ فلو أن العقل فى حاجة إلى مساعدة الإنسان لانتظر حتى يقدم له الإنسان ما يعمله حين يستيقظ هذا الأخير فى الصباح .

الشاب : ولعل العقل ينتظر بالفعل .

الشيخ : لا ، بل يبدأ العقل مباشرة قبل أن يكون الإنسان قد استيقظ إلى الحد الذى يسمح له باقتراح شىء بالذات ، قد يذهب الإنسان لينام وهو يقول « فى اللحظة التى أصحو فيها سوف أفكر فى كذا وكيت » ولكنه سوف يفشل . سوف يكون عقله أسرع منه . ففى الوقت الذى يكون فيه قد تدرج من النوم إلى مجرد حالة من الصحو لا يتمتع فيها بأكثر من نصف شعوره ، سوف يجد أن عقله مشغول فعلا فى التفكير بموضوع آخر ، ويمكنك أن تجرى التجربة على نفسك .

الشاب : على كل حال لو شاء الإنسان لأجبر عقله على استمرار التفكير فى موضوع يملؤه بالفعل .

الشيخ : لن يحدث هذا إذا وجد العقل موضوعا أكثر إرضاء له . وكقاعدة عامة يمكن القول بأنه لن ينصت لخطبة مملة ولا لخطبة رائعة ، لأنه يرفض الإذعان لأية محاولة لدفعه نحو فكرة ما . فالخطبة المملة تبعث فيه السآمة فيفزع إلى دنيا الأحلام يلتمس فيها ما يشغله ، والخطبة البارعة تقذف إليه بأفكار مثيرة تستهويه فيتعقبها فينسى الخطيب

وخطبته . لا يمكنك أن تمنع عقلك من الشرود إن أراد ، فهو السيد ولست أنت .

بعد بضعة أيام

الشيخ : أما عن الأحلام — ولكن لنؤجل الموضوع مؤقتا ، والآن خبرنى هل حاولت أن تأمر عقلك بانتظار تعلياتك فلايتعرض لفكرة ما من تلقاء نفسه .

الشاب : نعم . أمرته بأن يتأهب لتلق أوامرى حين أستيقظ فى الصباح .

الشيخ : وهل أطاع ؟

الشاب : لا ، بل بدأ التفكير فى شىء من عندياته ، بدون أن ينتظرنى ، كما أنى اتبعت اقتراحك فحددت له فى المساء موضوعا ليبدأ التفكير فيه فى الصباح وأمرته أن يبدأ به دون سواه .

الشيخ : وهل أطاعك ؟

الشاب : لا .

الشيخ : كم مرة حاولت إجراء هذه التجربة ؟

الشاب : عشر مرات .

الشيخ : وكم مرة نجحت ؟

الشاب : ولا مرة .

الشيخ : إذن فالمسألة كما ذكرت لك : العقل مستقل عن الإنسان ، وليس للإنسان سيطرة عليه — فهو يعمل ما بداله . يختار مادة تفكيره رغم أنف صاحبه ؛ ويظل محتفظا بها رغم أنف صاحبه ؛ أو يلقى بها جانبا رغم أنف صاحبه أيضاً . أى أن استقلال العقل استقلال تام غير منقوص .

الشاب : استمر . وضح ما تقول .

الشيخ : هل تعرف لعبة الشطرنج ؟

الشاب : تعلمتها منذ أسبوع .

الشيخ : هل ظل عقلك مشغولا باللعبة طوال الليلة الأولى لتعلمك إياها ؟

الشاب : أوه ، لا تذكرنى بذلك .

الشيخ : كان فى اهتمامه مشوقا نهما ، ظل يقفز من لعبة إلى أخرى ، رجوته أن يترك اللعب جانبا ويسلمك للنوم . أليس كذلك ؟

الشاب : نعم . ولكنه لم يستمع لى . ظل يلعب بدون توقف ، أجهدنى الأرق فنهضت فى الصباح شاحباً متثاقلا .

الشيخ : ألم تعلق بذهنك ذات مرة قطعة من الشعر الهازل لم تقدر على الخلاص منها ؟

الشاب : نعم ، نعم

أنا شفت « إيسو » بيبُوس « كيت » ؛
« وكيت » شافتنى شايف « إيسو » ؛
أنا شفت « إيسو » شايف « كيت » ؛
« وكيت » شافتنى . . . . . . الخ .

وهكذا لقد سر عقلى بها إلى حد الجنون حين سمعتها لأول مرة . ظل يرددها طول النهار وطول الليل لمدة أسبوع بالرغم من كل ما عملته لإيقافه . وبدا لى أنى ولا شك مشرف على الجنون .

الشيخ : وما رأيك فى الأغنية الشعبية الجديدة ؟

الشاب : آه ! نعم . نعم . « قربت أنول الهنا . . . . الخ » هذه الأغنية بأنغامها البديعة ظلت تتردد فى عقلى ليل نهار أثناء نومى ويقظتى حتى

أحالنى الأرق حطاماً ، وما من سبيل لإيقاف التفكير .

الشيخ : أراك تعترف بنشاط العقل « أثناء النوم واليقظة » ومعنى هذا أن العقل سيد مستقل تمام الاستقلال . . . . هو مستقل عنك إلى الحد الذى يمكنه من إدارة شئونه وتوقيع أغانيه ونسج أحلامه الباهرة المتشابكة أثناء نومك . ليست به حاجة إلى مساعداتك ، ولا إلى توجيهك ولا يفيد شيئاً من وراء هذه المساعدة أو هذا التوجيه سواء أكنت يقظانَ أم نائماً ، لقد سبق لك أن تخيلت أن لك القدرة على ابتكار فكرة جديدة فى عقلك واعتقدت بإخلاص أن هذا ممكن .

الشاب : نعم . كان لى مثل هذا الاعتقاد .

الشيخ : ومع ذلك فليس فى استطاعتك أن تبتكر مادة تقدمها لعقلك ينسج منها كيف شاء .

الشاب : لا .

الشيخ : وليس بإمكانك أن تملى عليه خطة السير بعد أن يكون قد ابتكر مادة الحلم لنفسه .

الشاب : لا . ليس هذا بإمكانى ولا بإمكان أى إنسان آخر — هل تعتقد أن « عقل اليقظة » و « عقل الأحلام » هما نفس الشىء ؟

الشيخ : هنالك ما يثبت ذلك . فأحياناً تطوف بنا أثناء الصحو أفكار خيالية جامحة ، أفكار تشبه الأحلام .

الشاب : نعم . ومثال ذلك قصص « ألف ليلة وليلة » أو قصة مستر « ولز » عن الرجل الذى اخترع سائلا يحيل الإنسان إلى مخلوق غير مرئى . .

الشيخ : وأحياناً نحلم أحلاماً معقولة ، بسيطة ، منطقية غير خيالية .

الشاب : نعم . قد يتفق لى أن أحلم أحلاماً تنطبق عليها هذه الأوصاف ،

أحلاماً تشبه الحياة الواقعية تمام الشبه ، أحلاماً يبدو فيها عدد غير يسير من الأفراد لكل منهم أخلاقه ومميزاته — فأشهد أفراداً من صنع عقلى ولكنهم مع ذلك غرباء علىّ . أرى بينهم الجلف والمهذب ، العاقل والأبله ، القاسى والمترفق ، المشاكس والمسالم ، الشيخ والشاب ، الجميلة والدميمة — وكل منهم يتكلم وفقاً « لشخصيته » محتفظاً بطابعه الخاص . وقد يشمل الحلم من مناظر العراك الدامى أو الإهانات اللاذعة ، أو أحاديث الهوى ما ينبض كله بالحياة . . . مآس ومهازل ، أحزان تعتصر قلبك ، وأقوال وأفعال تثير ضحكك ، أى أن المسألة كلها لا تخالف الحياة الواقعية فى كثير أو قليل .

الشيخ : هل نفهم من هذا أن عقلك يبتكر موضوع الحلم ، وينسج جزئياته وتفاصيله بدقة ومهارة ثم يتولى عرض تمثيليته البارعة — كل هذا بدون مساعدة أو إيحاء من جانبك ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : إذن فى هذا ما يثبت قدرته على أن يقوم بنفس العملية فى يقظته بدون أدنى مساعدة أو إيحاء من جانبك — وهذا هو ما أعتقده أنا شخصياً . أى أن « عقل اليقظة » و « عقل الأحلام » هما نفس الشىء ، هما نفس الأداة التى لا تتطلب منك مساعدة بالمرة . . . . نعم ليس العقل إلا آلة ، آلة مستقلة تمام الاستقلال ، آلة تعمل بشكل لا إرادى « بشكل أوتوماتيكى » .

هل قمت بالتجربة الأخرى التى اقترحت عليك إجراءها ؟

الشاب : أى تجربة تقصد ؟

الشيخ التجربة التى تحاول من ورائها معرفة مقدار سيطرتك على عقلك ؛ إن كانت لك ثمة سيطرة عليه .

الشاب : نعم أجريتها فكانت موضوعاً للتسلية لا بأس به . فعلت ما أمرتنى به فوضعت أمام عينى موضوعين أحدهما ممل لا أثر فيه للتسلية ، والآخر ممتع شيق ملىء بالسحر والجاذبية ، وأمرت عقلى أن يقصر اهتمامه على الموضوع الممل .

الشيخ : وهل أطاعك ؟

الشاب : لا ، لم يطعنى بل شغل نفسه بالموضوع الثانى .

الشيخ : هل نويت نية صادقة أن تجبره على طاعتك ؟

الشاب : نعم فعلت كل ما تتسع له طاقتى .

الشيخ : وماذا كان نص الموضوع الذى رفض عقلك أن يركز فيه انتباهه ؟

الشاب : كان شيئاً من هذا القبيل . إذا فرضنا أن (ا) عليه أن يدفع مبلغ دولار ونصف دولار إلى (ب) وأن(ب) عليه أن يدفع دولارين وثلاثة أرباع دولار إلى (حـ) وأن (حـ) عليه أن يدفع ٣٥ سنتاً إلى (ا) وأن (ا ، د) عليهما أن يدفعا معاً إلى (هـ ، ب) مبلغ $\frac{٣}{٢٦}$ من الـ . . . . . الـ . . . . . لا أذكر بقية الموضوع الآن ، ولكنه على كل حال ممل كل الملالة ، وما كان بوسعى أن أجبر عقلى على التركيز فى مثل هذه السخافات أكثر من نصف دقيقة فى كل مرة ، فقد ظل يحاول أن يجد مهرباً فى ثنايا الموضوع الثانى .

الشيخ : وماذا كان ذلك الموضوع الثانى ؟

الشاب : أرجو أن تعفينى من الإجابة على هذا السؤال .

الشيخ : لا . . . بل خبرنى ما هو ؟

الشاب : صورة .

الشيخ : صورتك ؟

الشاب : لا ، بل صورتها .

الشيخ : لقد أجريت اختباراً طيباً — هل قمت بتجربة أخرى ؟

الشاب : نعم ، أمرت عقلى أن يقصر اهتمامه على ما جاء بإحدى صحف الصباح عن أسعار الخنازير ، وفى نفس الوقت ذكرته بتجربة مرت بى منذ ستة عشر عاماً ، فرفض التفكير فى الخنازير بينما وجه كل اهتمامه للحادث القديم .

الشيخ : وما تفاصيل ذلك الحادث ؟

الشاب : لطم أحد الأشقياء المسلحين وجهى أمام عشرين شخصاً ، وكلما تذكرت هـذا الحادث تثور فى نفسى نوازع الشر وأحس أن لو تمثل أمامى الآن لقتلته .

الشيخ : كلاهما اختبار طيب ، وهل وضعت اقتراحى الآخر موضع التجربة أو التنفيذ ؟

الشاب : تعنى تلك التجربة المقصود بها إقناعى بأنى إذا تركت عقلى ليتصرف وفق هواه فإنه سوف يجـد مادة للتفكير بدون مساعدتى أو تدخلى ، وبذلك يقنعنى بأنه آلة « أوتوماتيكية » تديرها المؤثرات الخارجية — آلة وصلت فى استقلالها عنى إلى الحد الذى قد تبلغه لو كانت فى جمجمة رجل آخر ؟ أتقصد هذه التجربة ؟

الشيخ : نعم .

الشاب : أجريتها بينما كنت أحلق ذقنى فى الصباح بعـد أن استمتعت طوال الليل بنوم هادىء عميق ، وكان عقلى نشطا — كان مرحاً

طروباً . أسعدته نادرة ظريفة من نوادر طفولتي البعيدة التمعت فجأة في ذاكرتي بمجرد أن وقع نظري على قطة صفراء تتلمس طريقها بحذر على حافة سور الحديقة كان لونها كافياً لاستعادة صورة قطة الطفولة : رأيتها تسير على السلم الجانبي لمنبر القس في الكنيسة ، ثم تنتقل على جهل منها إلى حيث وضعت رقعة كبيرة لزجة من ورق صيد الذباب ، وفي مثل لمح البصر كانت جميع أقدامها قد التصقت بالمصيدة ، رأيتها تقاوم ثم تسقط عاجزة حانقة ، كلما ضاعفت من عنف جهدها ، كلما زادت مرارة الفشل ، ثم قفز إلى ذاكرتي منظر المصلين يرتجفون في لحظة من لحظات السمو العاطفي وقد سالت دموعهم خشّعاً صامتين ، رأيت هذا كله ولم يلبث مرأى الدموع أن طوّح بذهني إلى مشهد أبعد وأشد حزناً ، بدت أمامي جزيرة « تييرا دلفويجو » كما كنت أشهدها بعيني داروين ، وهناك رأيت عملاقاً عارياً من بين المتوحشين يقذف بابنه الصغير من فوق الصخور عقاباً له على هفوة تافهة ، ثم رأيت الأم المسكينة تجمع أشلاء ابنها المحتضر وتضمه إلى صدرها وتبكي بدون أن تنبس بكلمة واحدة ، ولكن هل أطال عقلي وقفته ليبكي نكبة تلك الأم العارية السوداء — شقيقتي في الإنسانية ؟ لا . ففي أقل من ثانية كان بعيداً عن ذلك المشهد مشغولا بذكر تفاصيل حلم يعاودني بين حين وآخر . في ذلك الحلم أرى نفسي عارياً كما ولدتني أمي ، أروح وأغدو . أتقرب وأتهرب وسط جمع حاشد من السيدات والرجال كلهم معني بهندامه إلى حد الكمال — وقد حيرتني الرغبة في معرفة الكيفية التي أوصلتني هناك . وهكذا صورة بعد صورة ، حادث بعد حادث . . . . لوحة حية بل كلّ ما فيها يعج

بالحياة ، لا ثبوت لها ولا استقرار ، لا يزال العقل يعمل فيها بين جمع وتشتيت بغير حاجة إلى أدنى مساعدة من جانبي .

قد أستغرق ساعتين لو أنني حاولت مجرد ذكر أسماء الأشياء التي حشدها ذهني وصورها في ربع ساعة — هذا بخلاف وصفها لك .

الشيخ : حين يترك العقل حراً فإنه لا يحتاج إلى أية مساعدة من جانب الإنسان ، ولكن هناك طريقة تمكن المرء من الحصول على معونة عقله إن أراد .

الشاب : وما هي هذه الطريقة ؟

الشيخ : حين تتعاقب الخواطر في عقلك سراعاً فإذا بك أمام خاطر ملهم ، فما عليك إلا أن تفتح فمك وتتحدث بكل ما يوحى به إليك ، أو تشرع قلمك وتسجل كل ما يمر بك ؛ فكل من هاتين العمليتين سوف يساعدك على إطالة اهتمامك بالموضوع وتركيز ذهنك فيه فيتابع السير راضياً ، في مثل هذه الحالات سوف تجد أن عقلك يأخذ كل شيء على عاتقه ويمدك بالكلمات اللازمة للتعبير .

الشاب : ولكن ألست أنا الذي أملي عليه ما يقول ؟

الشيخ : من المؤكد أن هناك حالات لا تجد فيها الوقت لمثل ذلك ، فالألفاظ تتدفق قبل أن تعرف أنت ماذا تنوي أن تكتب أو تقول .

الشاب : هل لديك أمثلة لذلك ؟

الشيخ : خذ على سبيل المثال « النكتة » أو « القفشة » — التعبير في هذه الحالات أسرع من أن يسمح لك بترتيب الألفاظ ، ليس هنا مجال للتفكير ولا للتأمل . وحيثما تصادف بديهة حاضرة تأكد أنها تعمل بشكل « أوتوماتيكي » ولا تحتاج إلى مساعدة . وحيثما تصادف

شخصا تعوزه سرعة الخاطر تأكد أن البحث والتأمل (مهما أغرق فيهما) لن يغنياه شيئاً ، وإن حاول التطرف .

الشاب : هل تعتقد حقاً أن ليس باستطاعة إنسان ما أن يبتكر شيئاً . . . أن يخلق شيئاً ؟

عملية التفكير

الشيخ : نعم أعتقد ذلك فالإنسان يدرك إدراكا حسياً ، وآلته العقلية تقوم بعملية ربط « أوتوماتيكى » بين المدركات ، وهذا هو كل شىء .

الشاب : وما رأيك فى قاطرة بخارية مثلا ؟

الشيخ : احتاجت لجهود خمسين رجلا خلال مائة سنة قبل أن يتم اختراعها . بالطبع كلمة « اختراع » ترادِفُها كلمة « اكتشاف » . وأنا أستخدم الكلمة الأولى بهذا المعنى الأخير ، وهؤلاء « المخترعون » ، اكتشفوا وطبقوا بالتدريج مئات من التفاصيل التى تدخل فى صنع الآلة الكاملة . فى البداية لاحظ (وات) أن البخار المحتبس كانت له القوة الكافية لرفع غطاء غلاية الشاى . هو لم يخلق الفكرة بل اكتشفها ، ولعل قطته سبقته إلى ملاحظة نفس الشىء مئات المرات من قبل . . . . تطورت غلاية الشاى فى ذهنه حتى صارت اسطوانة ، وتطور غطاء الغلاية فى ذهنه حتى صار مكبساً ، كان من أبسط الأمور بعد ذلك أن يجعل المكبس على صلة بشىء يتحرك وفقاً لحركة — ذراع . . . ثم عجلة . . . وهكذا خرج إلى حيز الوجود محرك بخارى (١) .

ثم أتى المكتشفون واحداً بعد آخر ، كل منهم يدخل تحسيناً من

(١) كان مركيز ورستر قد اكتشف كل هذه الأشياء قبل ذلك بمائة سنة .

عنده ، كانوا يستخدمون عيونهم لا أكثر — لم يستخدموا قوة الخلق عندهم لأنهم لا يملكون قوة بهذا الاسم ، والآن بعد مرور مائة سنة ترى عشرات التعديلات التى أدخلها خمسون أو ستون مكتشفاً مندمجة كلها فى الآلة الرائعة التى تدفع سفينة محيطية كبيرة .

الشاب : وما رأيك فى مسرحية من مسرحيات شكسبير ؟

الشيخ : نفس العملية ونفس التطور ، فأقدم أنواع التمثيل هو ما كان يقوم به المتوحشون فى رقصاتهم الحربية من استعادة ما صادفوه فى حياتهم اليومية من حوادث — تقدمت المدنية قليلا فأنتجت حوادث أكثر واتصالات أوسع استعارها الممثل والقصاص ، وهكذا نما القصص التمثيلى شيئاً فشيئاً وتدرج فى طريق الاكتمال ، فالمسرحية إذن مصنوعة وليست « مخلوقة » . صيغت من حقائق الحياة ليس إلا . كان لا بد من مرور قرون وقرون قبل أن نصل إلى التمثيليات اليونانية ، وكان كل عصر يستعير من العصور التى سبقته ويعير العصور التى تلته .

فالإنسان يمكن تلخيصه فى كلمتين « إدراك » و « ترابط » . ولا يخرج الأمر عن إحدى هاتين العمليتين ، ولا نغالى إذا قلنا إن عقل الفأر يعمل بنفس الطريقة .

الشاب : وكيف ذلك ؟

الشيخ : الفأر يدرك رائحة يستنتج منها أن قطعة الجبن ليست ببعيدة عنه فيبحث عنها فيجدها ، والفلكى يدرك شيئاً هنا وشيئاً هناك ، ويضيف هذه الاكتشافات الجديدة إلى اكتشافات عشرات الفلكيين أسلافه ، ويخرج من هذه الإضافة . . . . يخرج من هذا الربط باستنتاج وجود كوكب غير مرئى فيبحث عنه ويجده ، والفأر يجد نفسه فجأة داخل

مصيدة ، فيحاول الخروج بعد لأى ، فيستنتج من تجربته أن الجبن فى المصايد لا قيمة له وينقطع عن التعرض للمصايد بعد ذلك .

الفلكى معتد بالنتيجة التى وصل إليها ، والفأر معتد بالنتيجة التى بلغها . ومع ذلك فكلاهما آلة وكلاهما أدى عملا آلياً بحتاً . لم يبتكرا ، لم يستحدثا ، لم يخلقا شيئاً ، وليس لهما أن يفخرا بشىء — وإنما الفضل كله راجع إلى خالقهما ، ليس لهما الحق فى ألقاب الشرف أو المدائح أو الأضرحة أو الذكرى ، فأحدهما آلة معقدة فى تكوينها معقدة فى طريقة عملها ، والآخر آلة بسيطة ذات قدرات محدودة ، ولكنهما متشابهان من حيث القانون الذى صنعا بمقتضاه ، والوظائف التى وجدا من أجلها ، والعمليات التى يقومان بها . ولا يتبع هذا أو ذاك غير طريقة واحدة فى عمله . . وهى العمل بشكل « أوتوماتيكى » . وليس لأحدهما الحق فى الإدعاء بأن له من القدر الشخصى أو الاعتبار الذاتى ما يرفعه فوق الآخر .

الشاب : أينتهى به كفاحه من أجل تأمين قدره الشخصى إلى أن يوضع على قدم المساواة مع الفأر ؟

الشيخ : تقصد شقيقه الفأر . نعم هذا ما يبدو لى . ليس لأحدهما الحق فى التمتع بتقدير شخصى من أجل الأعمال التى يقوم بها ، ومن ثم فليس لأحدهما الحق فى أن يفخر (ولو بينه وبين نفسه) بتفوقه على أخيه .

الشاب : هل أنت مصر على أن تظل مؤمناً بهذه الترهات ؟ هل تبقى على إيمانك بها رغم الحجج القاطعة التى تدعمها الحقائق والأمثلة المحصة ؟

الشيخ : ما كنت إلا باحثا متواضعا أجد مخلصا فى السعى وراء الحقيقة .

الشاب : وماذا بعد ؟

الشيخ : والباحث المتواضع الجاد المخلص لن يتعذر عليه تغيير عقيدته إن صادف من الحجج القاطعة ما يقضى بهذا التغيير .

الشاب : الحمد لله . . . . يسرنى أن أسمعك تقول هذا ، لأنى الآن أعلم أن تغيير عقيدتك . . . .

الشيخ : انتظر . أسأت فهم مقصدى ، قلت بأنى كنت « أسعى وراء الحقيقة » . . . . فى الماضى

الشاب : والآن ؟

الشيخ : لم أعد أفعل ذلك الآن . هل نسيت ما أخبرتك به ؟ هل نسيت قولى بأن البحث عن الحقيقة لا يمكن إلا أن يكون مؤقتا ؟ وأن من الأمور المستحيلة على الإنسان أن يستمر فى البحث إلى ما لا نهاية ، وأن الباحث بمجرد وصوله إلى ما يعتقد اعتقاداً جازما بأنه الحق فليس ثمة ما يدعوه إلى مواصلة بحثه — بل يقضى البقية الباقية من عمره فى اصطياد الخرق يحشو بها الفجوات حتى يغدو « زورق النجاة » الذى يلوذ به قادراً على مجابهة العواطف . وعلى ذلك يظل البرسبتيريان مخلصا لمذهبه ، والمسلم مخلصا لدينه ، والروحانى مخلصا لخرافاته ، والديمقراطى مخلصا لمبدئه ، والجمهورى مخلصا لسياسته ، والملكى مخلصا لعقيدته .

يتبع البحث المؤقت تسليم تام بحقيقة من الحقائق . وفى هذه الحالة لو فرضنا أن باحثا جادا مخلصا تدرج به البحث إلى الاعتقاد بأن القمر مصنوع من الجبن لما أمكن لأى قوة فى العالم أن تزحزحه عن موقفه . فهو ليس إلا آلة «أوتوماتيكية» عليها أن تتبع قانون بنائها ولا تحيد عنه .

الشاب : وإذن . . . . . .

الشيخ : حيث إن الإنسان ليس له إلا دافع واحد يحركه وهودافع استرضاء الذات ، وحيث إنه لا يعدو أن يكون آلة ، وحيث إنه لا يحق له أن يفخر بقيمة شخصية ينسبها لنفسه ولأعماله — إذن فبمجرد وصولى إلى الحقيقة فليس فى استطاعتى كإنسان أن أتابع البحث عنها . سوف أقضى البقية الباقية من عمرى فى رتق وصوغ وترميم ، وتهذيب عقيدتى التى أعزها كل الإعزاز ، بينما أحول وجهى فى الاتجاه المضاد كلما لاحت فى الأفق حجة مقنعة أو حقيقة هادمة .

الفصل السادس

الغـــريزة والتفكير

الشاب : هذا الموضوع شاذ كل الشذوذ ، فالنظريات المختلفة التى قدمتها منذ لحظة حين تحدثت عن الفأر والمصيدة . . . الخ — تلك النظريات تخلع عن الإنسان كل ثياب الكرامة ، والعظمة ، والجلال .

الشيخ : الإنسان لا يملك مثل هذه الثياب حتى نخلعها عنه — لعله يدعى ملكيتها ولكنها ليست إلا ثياباً مسروقة ، هو يريد أن ينسب لنفسه فضلا ليس من حقه بل من حق خالقه .

الشاب : ولكن ليس لك أن تضمه فى نفس المستوى مع فأر .

الشيخ : لم أقصد الناحية الأخلاقية طبعاً . ففى ذلك ظلم كبير للفأر . إذ أن الفأر يفوق الإنسان كثيراً فى هذه الناحية .

الشاب : أتقصد المزاح ؟

الشيخ : كلا . بل أنا جاد فيما أقول .

الشاب : فماذا تعنى إذن ؟

الشيخ : آه ! هذه النقطة تدخل فى نطاق « الإحساس الخلق » ، وهو موضوع كبير . فدعنا ننهى ما نحن بصدده الآن قبل أن نتعرض لهذا الموضوع .

الشاب : حسناً . لقد بدا لى أنك تسلم بوضع الإنسان والفأر فى مستوى واحد . فما هو ذلك المستوى ؟ أهو المستوى الفكرى ؟

الشيخ : نعم . فى « الشكل » وليس فى « الدرجة » .

الشاب : وضح .

الشيخ : اعتقد أن عقل الفأر وعقل الإنسان هما نفس الآلة ، ولكن طاقة كل منهما تخالف الأخرى — مثلهما فى ذلك مثل الفرق بين عقلك وعقل إديسون ، أو الفرق بين عقل زنجى من أقزام أواسط أفريقيا وعقل هومر ، أو الفرق بين عقلية سكان أستراليا الأصليين وعقلية بسمارك مثلا .

الشاب : وكيف يتيسر لك تفسير قولك هذا حين تعلم أن الحيوانات الدنيا ليست لها قدرات عقلية سوى الغريزة بينما الإنسان يتمتع بنعمة العقل .

الشيخ : وما هى الغريزة ؟

الشاب : هى مجرد تطبيق آلى غير واع لعادات موروثة .

الشيخ : ولكن كيف نشأت هذه العادة فى بادىء الأمر ؟

الشاب : بدأها الحيوان الأول ثم ورثتها ذريته من بعده .

الشيخ : وكيف تسنى للحيوان الأول أن يبدأها ؟

الشاب : لا أدرى . ولكنه بالطبع لم يصل إليها عن طريق التفكير .

الشيخ : وما يدريك أنه لم يفكر بالفعل ؟

الشاب : حسناً . أظن أن لى الحق فى افتراض أنه لم يفعل ذلك .

الشيخ : أنا لا أسلم لك بهذا الحق . ما هو التفكير ؟

الشاب : أعلم تعريفك للتفكير . هو تجمع آثار المؤثرات الخارجية بشكل آلى « أوتوماتيكى » ثم استخلاص نتيجة منها .

الشيخ : حسناً . سوف أنبئك بتفسيرى للفظة « الغريزة » — فهى أولا كلمة لا معنى لها لأنها لا تعدو أن تكون « فكرة متحجرة » ، أى

فكرة تصلبت بفعل العادة ففقدت كل ما لها من حيوية الأفكار ؛ كانت فى وقت من الأوقات فكرة حية يقظة ، ثم غدت بالتدريج فكرة لا شعورية — كأنما هى تسير أثناء نومها .

الشاب : فسر ما تقول .

الشيخ : خذ على سبيل المثال قطيعاً من البقر يرعى الأعشاب فى أحد المراعى . رؤوس الأبقار كلها متجهة فى جهة واحدة . هى تفعل ذلك بحكم الغريزة لا أكثر فوقوفها فى هذا الوضع لا يعود عليها بأية فائدة ، وليس له سبب ظاهر ، ولا تعرف الأبقار نفسها لماذا تتصرف بهذا الشكل . هى عادة موروثة كانت فى بادىء أمرها فكرة مستحدثة ، أى ملاحظة لحقيقة خارجية تبعها استنتاج قيّم استخلص من تلك الملاحظة ثم دعمته التجربة .

لاحظ الثور البرى القديم إنه بمساعدة الريح يمكنه أن يشم عدوه والمسافة بينهما ما زالت تسمح له بالفرار ، فاستنتج أن من الأوفق جعل أنفه فى مهب الريح ، وهذه هى العملية التى يسميها الإنسان التفكير . وأداة التفكير عند الإنسان تعمل بنفس الطريقة التى تعمل بها أداة التفكير عند الحيوانات الأخرى ، ولكنها أداة أحسن ؛ فلو أن الإنسان وجد فى مكان الثور لذهب إلى حد أبعد ولفكر فى مجال أوسع ، سوف يجعل جزءاً من القطيع يدير وجهه فى الاتجاه المضاد وبذلك يحمى المقدمة والمؤخرة معاً .

الشاب : هل قلت إن لفظة « الغريزة » لا معنى لها ؟

الشيخ : بل أعتقد أنها كلمة عديمة الأصل . أعتقد أنها تربكنا . فهى دائماً تطلق على عادات ودوافع أتت عن أصول بعيدة أنشأها التفكير .

الشاب : اعط مثالا لما ذكرت .

الشيخ : إليك هذا المثال . عند لبس السروال يبدأ الإنسان دائماً بإدخال نفس الساق التي تعود أن يبدأ بها دون الساق الأخرى . هذا التصرف لا ينطوى على أية فائدة أو أى معنى . فكل الرجال يتصرفون بنفس الشكل ، ولكن ما من رجل فكر فيه عن قصد أو تبعه عن عمد ، وإنما هى عادة منقولة ولا شك ولسوف يستمر انتقالها من جيل لآخر .

الشاب : هل يمكنك أن تثبت أن العادة موجودة بالفعل ؟

الشيخ : إذا كنت شاكا فيما أقول ففى إمكانك إثباته . إذا أخذت شخصاً إلى مخزن ملابس وراقبته يجرب « دستة » سراويل فسوف ترى صحة كلامى .

الشاب : ولكن مثال البقر ليس : . . . .

الشيخ : ليس كافياً لإثبات أن الأداة العقلية عند حيوان أعجم هى نفس الأداة العقلية عند الإنسان ، وأن عملية التفكير عندهما واحدة ؟ إليك أمثلة أخرى . إذا أعطيت مستر إديسون صندوقا جملته بحيلة من الحيل ينفتح فجأة بمجرد لمسه فإن إديسون سوف يستنتج وجود زنبرك . سوف يبحث عنه ويجده .

ولنقارن هذا المثال بالقصة التالية . كان لأحد أعمامى حصان عجوز اعتاد أن يدخل فى « شونة » الغلال ذات السور والباب المقفل ليسرق سنابل القمح . وكانت العقوبة تلحقنى باستمرار نظراً لأن عمى كان يظن أنى أهملت وضع الوتد الخشبى فى مكانه من الباب لإقفاله . أضجرتنى هذه العقوبات المتكررة وجعلتنى أستنتج وجود مذنب ما فى مكان ما . وعلى ذلك أخفيت نفسى وراقبت الباب لم أطل الانتظار حتى رأيت

الحصان يأتى وينزع الوتد بأسنانه ويدخل . لم يعلمه أحد ذلك ، فقد راقب واستنتج بنفسه . لم تختلف عمليته العقلية عن تلك التى قام بها إديسون . جمع التفاصيل الصغيرة واستخلص منها نتيجة . وإنى لأذكر الآن بأية قسوة ضربته فى تلك اللحظة .

الشاب : يبدو من هذه القصة أن المسألة فيها تفكير . ومع ذلك فهو تفكير غير معقد ، توسع فى إيضاحك .

الشيخ : لنفرض أن إديسون نزل ضيفاً على شخص من الأشخاص ، ولنفرض أنه عاد إلى نفس المنزل بعد فترة من الزمن فوجده خالياً . فى هذه الحالة يستنتج أن مضيفه قد انتقل إلى مسكن آخر . ثم لنفرض أنه بعد فترة أخرى وفى مدينة أخرى رأى الرجل يدخل منزلا فإنه يستنتج أن هذا هو المسكن الجديد فيتبع صاحبه ليسأل .

والآن إليك تجربة « نورس » (طائر بحرى) كما قصها أحد علماء التاريخ الطبيعى . مكان القصة قرية للصيادين على شاطئ البحر فى اسكتلنده . كان أهل القرية كثيراً ما يكرمون هذه الطيور . وحدث أن زار النورس الذى نحن بصدده كوخ أحد الصيادين حيث قُدِّم له الطعام . عاد فى اليوم التالى وقُدم له الطعام من جديد . وفى المرة التالية دخل المنزل وتناول غداءه مع أفراد العائلة — ومنذ ذلك الحين ظل يتردد على المنزل يومياً . ولكن حدث أن انقطع النورس عن زياراته لغيابه فى رحلة عاد بعدها فوجد الدار خلت من ساكنيها ؛ كانت الأسرة قد انتقلت إلى قرية تبعد عن الأولى بمقدار ثلاثة أميال . وبعد بضعة أشهر رأى الطائر رب الأسرة سائراً فى أحد طرق القرية فتبعه إلى منزله ، بل ودخل المنزل جاعلا من نفسه ضيفا يوميا على الأسرة .

وأنت تعلم أن النورس لا يتمتع بمكانة عقلية ممتازة بين سائر الطيور أو الحيوانات . ولكن بطل قصتنا هذه كانت لا تعوزه الذاكرة ولا ملكة الاستنتاج ، وقد شاهدناه يستخدم هاتين الملكتين على الطريقة الإديسونية .

الشاب : ومع ذلك فهو لم يكن مساوياً لإديسون بل ولن يتيسر تدريبه حتى يتساوى مع إديسون .

الشيخ : ربما لم يكن ذلك ممكناً .

الشاب : ولكن تعليق هذا لا قيمة له فى الواقع . استمر .

الشيخ : لو أن إديسون صادفته مشكلة تخلصه منها رجل غريب عنه ولو أنه عاد فوقع فى نفس الورطة فى اليوم التالى فإنه سوف لا يجد صعوبة فى تقرير أحكم تصرف يمكن أن يقوم به لو أنه عرف عنوان ذلك الغريب ، وإليك قصة وقعت حوادثها بين طائر ورجل كما قصها أحد علماء التاريخ الطبيعى . رأى أحد الإنجليز طائراً يحوم حول رأس كلبه الرابض على الأرض ، ويصيح أثناء طيرانه صيحات تنم عن ألمه . فذهب صاحبنا إلى حيث يربض كلبه ليرى بنفسه ما يحدث . كان الكلب قابضاً بفمه على طائر صغير ، وكان الفرخ لا يزال سليما من غير سوء ، تخلصه الرجل ووضعه فوق قمة شجيرة صغيرة وأبعد كلبه عنها . وفى ساعة مبكرة من الصباح التالى أتى الطائر صائحاً وحام حول منقذه وهو جالس فى شرفة منزله ، وبعد مناورات طويلة اقتنع الرجل بمتابعة طيران تلك الأم المسكينة إلى نقطة بعيدة فى الحديقة — كانت تسبقه بمسافة صغيرة ثم تنتظره حتى يلحق بها وهكذا ، بل وكانت تجعل طيرانها فوق الممشى المتعرج بدلا من اختصار الطريق بالطيران عبر مناطق الخضرة

التى لم يشأ الرجل أن يطأها . بلغت المسافة التى قطعها الرجل خلفها أربعمائة ياردة . كان المسىء فى هذه الحالة هو نفس الكلب وكان الطائر الصغير فى فمه ، وكان عليه أن يتخلى عنه لسيده مرة أخرى .

فكأن الأم فكرت واستنتجت بالشكل الآتى : بما أن الرجل الغريب ساعدها مرة فهو إذن على استعداد لمساعدتها مرة أخرى كانت تعلم أين تجده فبدأت محاولتها بثقة تامة . كانت عملياتها العقلية هى نفس العمليات العقلية عند إديسون لو أنه صادف نفس المشكلة . جمعت معاً نقطة من هنا ونقطة من هناك — وهذا كل ما تنطوى عليه كلمة « التفكير » — وخلصت من هذا الجمع إلى بناء قضايا منطقية قوامها الاستنباط ؛ وما كان باستطاعة إديسون أن يفعل خيراً من ذلك .

الشاب : هل تعتقد أن كثيراً من الحيوانات العجماء يمكنها أن تفكر ؟

الشيخ : نعم . الفيل والقرد والحصان والكلب والببغاء وغيرها وغيرها . فالفيل الذى سقطت أليفته فى حفرة فعمد إلى إلقاء الفضلات والقمامات فيها حتى ارتفع قاعها إلى الحد الكافى لتمكين أليفته من الخروج — هذا الفيل لا شك كانت له القدرة على التفكير ، وأرى أن كل الحيونات التى يمكنها أن تكتسب المهارات عن طريق التعليم والتدريب أعليها أن تعرف كيف تلاحظ وكيف تضع نقطة من هنا بجانب نقطة من هناك ثم تخرج منها باستنتاج أى أن عليها أن تقوم بعملية التفكير .

والآن خبرنى هل فى استطاعتك أن تعلم أبله كيف يستعمل الأسلحة وكيف يتقدم أو يتأخر وكيف يقوم بمناورات عسكرية معقدة بمجرد صدور الأمر إليه بذلك .

الشاب : إذا كان أبله كل البله فلا أظن ذلك ميسوراً .

الشيخ : حسناً . طيور « الكنار » يمكنها أن تفعل ذلك . والكلاب والفيلة تتعلم الشيء الكثير من الألعاب الغريبة . لا بد أن تكون لها القدرة على الملاحظة وربط النقط بعضها ببعض ، فتقول لنفسها « الآن فهمت المسألة . حين أعمل كذا وكذا وفقاً للأمر الصادر إلىّ سوف أنال المدح والعطف والغذاء وحين أعمل ما يناقض الأمر . . . أعاقَب » يمكن ياسيدى تعليم البراغيث كل شيء تقريباً من الأشياء التي يقدر أحد أعضاء « الكونجرس[1] » على القيام بها .

الشاب : على فرض تسليمنا بأن الحيوانات العجماء يمكنها أن تفكر فى مستوى منحط فهل يوجد بينها ما يمكنه أن يفكر فى مستوى أعلى ؟ هل من بينها ما يتسامى إلى مرتبة تقربه من الإنسان ؟

الشيخ : نعم . فالنملة فى تفكيرها وخططها تعادل أى جنس من الأجناس البشرية التي تعيش على الفطرة ، والنملة فى مقدرتها على تحصيل المعرفة بل والتخصص فى عدة فنون تفوق الكثير من أجناس البشر المنحطة . بل هى تتسامى فى صفة أو اثنتين من الصفات العقلية العالية إلى ما فوق مستوى البشر سواء أكانوا متمدينين أو متوحشين .

الشاب : على رسلك ! أنت بذلك تلغى حدود العقل التي تفصل بين الإنسان والحيوان .

الشيخ : أرجو المعذرة . لا يمكن إلغاء ما لا وجود له .

الشاب : آمل ألا تكون جاداً فيما تقول . لا أظنك تقصد إنكار وجود مثل هذه الحدود .

الشيخ : بل بالعكس أنا جاد فيما أقول . فأمثلة الحصان والنورس وأم الطائر

(١) الكونجرس هو مجلس الشيوخ الأمريكى — المترجم .

الصغير والفيل . . . كلها تدل على أن هذه المخلوقات تضع معا الجزئيات البسيطة التى تصادفها فى كل مشكلة ثم تستخلص منها نتيجة بنفس الطريقة التى ما كان إديسون ليتبع غيرها لو أنه عرض لنفس المشكلة . كانت الآلة العقلية عندها مشابهة تماماً لآلته العقلية فى تكوينها وفى طريقة عملها . أى أن أداة التفكير عند هذه الحيوانات لا تنقص عنها عند إديسون من حيث التفاصيل والتعقيد إلا بقدر ما تنقص ساعات « ووتربرى » عن ساعات « ستراسبورج » ولكن هذا هو الفرق الوحيد بينها أى ليست هناك حدود تفصل بين عقل فى جانب وغريزة فى الجانب الآخر .

الشاب : يبدو ما تقوله صحيحاً . . . صحيحاً إلى حد يدعو لليأس . هذه حقيقة تؤلمك بوضوحها . فهى ترفع الحيوان الأعجم إلى . . . إلى . . . .

الشيخ : دعنا نتخلص من هذا التعبير الكاذب . ولنسمها « المخلوقات التى لم يتم اكتشافها » فبقدر ما تتسع له معرفتنا لا يمكن أن نجزم بوجود حيوان واحد أعجم .

الشاب : على أى أساس بنيت حكمك هذا ؟

الشيخ : على أساس بسيط كل البساطة كلمة « أعجم » توحى فكرة حيوان تعوزه أداة التفكير ، يعوزه الفهم ، تعوزه طريقة التخاطب أو التعبير عما يدور بذهنه . ونحن نعلم أن الدجاجة عندها وسيلة للتخاطب . لا يمكننا أن نفهم كل ما تقوله ولكن فى وسعنا أن نتعلم جملة أو جملتين من لغتها . نفهمها حين تقول « لقد وضعت بيضة » ، ونفهمها حين تقول لأفراخها « إلىّ ياصغارى لقد وجدت دودة » ، ونفهمها حين تصيح محذرة « تعالوا ! تعالوا ! هلموا إلى الاختفاء تحت أجنحة أمكم

فقد أبصرتُ الصقر يقترب » ، ونفهم ما تعنيه المرة حين تستلق وتغمغم فى حنو ورقة ثم ترفع صوتها فى نداء رفيق « هلموا ياصغارى لتناول العشاء » ، ونفهمها حين تدور هنا وهناك مولولة « أين هم ؟ لعلهم ضلوا الطريق . هل لك أن تساعدنى فى البحث عنهم ؟ » . كما أننا نفهم ما يقصد إليه قط يرعد فى الليل محنقاً مهدداً « يالكم من سلالة نجسة ! لو جسرتم على المجىء إلى هنا لقطعت فراءكم إرباً » . ومن السهل علينا أن ندرك بعضا من وسائل التعبير عند الكلب ، أو ندرك جانباً من حديث وحركات أى طائر أو حيوان آخر نستأنسه ونلاحظه ، وإن دقة ووضوح العبارات القليلة التى نفهمها من حديث الدجاجة لتقوم دليلا قاطعا على أن بإمكانها توصيل المئات من أفكارها إلى بنات جنسها رغم أننا لا نفهم ما تعنيه فى كل مرة . أى إنها بالاختصار قادرة على التخاطب . وهذه الحجة يمكن تطبيقها أيضا فى حالة غيرها من أفراد ذلك الجيش العرمرم من « المخلوقات التى لم يتم اكتشافها » ..... التى لم يتسن لنا تفهمها بشكل كاف .

وليس مستغربا أن تصل القحة والغرور بالإنسان إلى أن يسم حيوانا بسمة العجمى لا لشىء إلا أن قوة الملاحظة عند الإنسان عاجزة عن أن تستشف القدرة على التعبير الكامنة وراء تلك العجمة الظاهرة ، والآن لنعد إلى النملة .

الشاب : نعم عد إلى النملة . عد إلى تلك المخلوقة التى تريد أن تتخذها حجة دامغة تمحو كل ما بقى قائما من حدود عقلية بين الإنسان والحيوان .

الشيخ : وهذا هو ما تفعله النملة بكل تأكيد . فمثلا ليس فى تاريخ سكان استراليا الأصليين ما يدل على أن أحدهم دار بخلده يوما أدنى ظل لفكرة

بناء بيت يسكنه ، بينما النملة « مهندس » تدعو تصميماته للعجب ، فهى كائن ضئيل صغير ولكنها تبنى بيتا قويا ثابتا يمكنه أن يقاوم الزمن وأن يقاوم التلف . يبلغ ارتفاعه ثمانى أقدام — فنسبة حجمه إلى حجمها تجعله مساويا لأضخم كابيتول أو كاتدرائية فى العالم ، إذا قورن حجم كل من هذين الأخيرين بحجم الإنسان . ولم يحدث يوما أن ظهر من بين أفراد شعب بدائى مهندس له من العبقرية والمعرفة ما يجعله يتسامى إلى مستوى النملة ؛ بل وما حدث أن قدم شعب متمدين للإنسانية أحداً من المهندسين أمكنه أن يضع تصميم بيت يفى بالأغراض التى يبنى من أجلها بقدر ما تفى بيوت النمل بحاجاته . فبيوت النمل تحوى قاعة للعرش ، وحجراً لتربية صغاره ، ومخازن للحبوب ، و « شققا » لسكنى الجنود ، وأخرى لسكنى العمال . . . وهكذا . وكل هذه الحجرات والصالات والدهاليز المتعددة التى تصل بينها تنم عن معرفة ودراية وخبرة كرست لتربيتها وتوزيعها حتى تظل ملائمة للسكنى ، بل وقابلة للتعديل إن اقتضى الأمر .

الشاب : يمكن تفسير هذا كله بأنه مجرد غريزة .

الشيخ : لا شك أن مثل هذه الغريزة كانت ترفع من قدر الإنسان الفطرى لو أنه خلق مالكا لها . ولكن دعنا نذهب فى بحثنا إلى أبعد مما ذهبنا قبل أن نقرر شيئا . إن للنمل جنوداً تنتظمهم فصائل وفرق وجيوش . بل ويقوم بينهم من أنفسهم قواد يتولون تسييردفة القتال. . . .

الشاب : يمكن تفسير هذا أيضا بأنه مجرد غريزة .

الشيخ : دعنا نذهب إلى أبعد من ذلك ، إن للنملة نظاما للحكم — وهو نظام دقيق يتم تنفيذه فى يسر وسهولة رغم أنه متشعب متداخل ،

الشاب : هى الغريزة من جديد .

الشيخ : وللنمل جموع هائلة من العبيد تستغلها بقسوة وعسف فى أعمال السخرة .

الشاب : غريزة .

الشيخ : وللنمل أبقارها ، وهى تحلب هذه الأبقار .

الشاب : أعمال غريزية بالطبع .

الشيخ : فى ولاية تكساس يوجد نوع من النمل يمكنه أن يمد مزرعة مربعة الشكل طول ضلعها اثنتا عشرة قدما تقريبا ، فيتولاها بالحرث والبذر ، ثم يتعهد النبات النامى بالخدمة والحراسة ، ويستبعد ما قد ينمو من أعشاب ضارة ، وحين ينضج المحصول يجمعه ويخزنه فى مكان أمين .

الشاب : هى الغريزة . . . . رغم كل ما ذكرت .

الشيخ : والنملة تميز بين الصديق وبين الغريب . وعلى سبيل المثال أذكر ما فعله « سيرجون لوبوك » . فقد أخذ جماعتين صغيرتين من النمل من خليتين مختلفتين وسقى أفرادها قدراً من الخمر حتى ثملوا ، ثم وضعهم (وقد غيبهم السكر عن وعيهم) بجوار إحدى الخليتين على مقربة من حفرة مملوءة بالماء ، خرجت بعض نملات من الخلية واختبرت هذه المخلوقات التعسة ، وبعد شيء من المداولة حملت أصدقاءها إلى الداخل وقذفت بالأغراب فى الماء ، كرر سيرجون لوبوك التجربة عدداً من المرات فاستمر النمل الخارج من الخلية يعيد نفس التصرف السابق — فيحمل الأصدقاء إلى الداخل ويلقى بالأغراب فى الماء ، ولكن فى النهاية حين وجدت الجماعة أن جهودها فى سبيل إصلاح شذوذ بعض أفرادها لم تثمر عيل صبرها فتعاونت على الإلقاء بالأصدقاء والأغراب

جميعاً فى المـاء . . والآن خبرنى هل هى غريزة تلك التى أملت مثل هذا السلوك ، أم هى مدارسة ومداولة تبعها تقرير خطة حيال ظرف جديد كل الجدة ولم يسبق أن مر بتجربة الجماعة . لقد وصلوا من مداولتهم إلى قرار ، ومن القرار إلى حكم ، ومن الحـكم إلى تنفيذ . هل هذه غريزة ؟ هل هى أفكار تحجرت بمرور الزمن وبالتكرار فأصبحت عادة آلية فقدت كل مالها من حيوية الأفكار ؟ أم هل هى فـكرة جديدة خلقتها وأوحتها المناسبة الجديدة والظرف الجديد .

الشاب : لا أملك حيال مثالك إلا التسليم بمـا تقول . لم يكن عمل جماعة النمل نتيجة لإملاء عادة ، بل تبدو فيه كل مظاهر عملية التفـكير — أقصد عملية وضع نقطة من هنا ونقطة من هناك ، هذه إلى جانب تلك ، ثم استخلاص صلة أو حكم أو نتيجة — نعم ، أعتقد أن المسألة كانت تفـكيراً .

الشيخ : سوف أعطيك مثالا آخر للتفـكير .

وضع فرانـكلين وعاء به سكر فوق منضدة فى حجرته . وصل النمل إلى السكر وبدأ فى أكله وإتلافه ، جرب فرانـكلين عدداً من الاحتياطات ، ولـكن النمل كان يغلبه . وأخيراً وصـل إلى ابتـكار حيلة اعتقد أنها تعجز النمل — ولعل ذلك كان بوضع أرجل المنضدة فى أوان ملأها بالماء ، أو لعله أنشأ دائرة من القطران حول وعاء السكر ، لا أذكر ماذا فعل بالضبط — وعلى كل حال فقد أخذ يرقب ما النمـل فاعل . قام النمـل بمحاولات عدة فأخفق فى كل واحدة منها . بدت عليهم الحيرة والارتباك ، وأخيراً عقد النمل مجلساً للمشاورة ، وتباحث الجمع فى المشـكلة إلى أن وصل إلى إقرار خطة للعمل .

وفى هذه المرة وجد الفيلسوف العظيم نفسه مغلوبا ، فقد كوّن النمل موكبا سار بأرض الغرفة نحو الحائط فتسلقه ثم تابع السير عبر السقف حتى نقطة تقابل وعاء السكر تماما ، ومن هذه النقطة أخذ النمل يتساقط واحدة تلو أخرى إلى قلب الوعاء ؛ فهل كان هذا بحكم الغريزة ؟ . . . بحكم أفكار تحجرت بمرور الزمن . وبالتكرار كعادات آلية فقدت كل مالها من حيوية الأفكار ؟

الشاب : كلا . أنا لا أرى ذلك بل أعتقد أن تصرف النمل كان حيلة جديدة لمواجهة مشكلة جديدة .

الشيخ : حسنا . أراك قد سلمت بوجود القدرة على الاستنتاج فى هذين المثالين . وسوف أذكر لك الآن شيئا عن مقدرة عقلية تفوق فيها النملة أى مخلوق بشرى — تفوقه بمراحل عدة . أثبت سيرجون لوبوك بتجارب كثيرة أن النملة يمكنها بنظرة واحدة أن تعرف نملة غريبة عن خليتها ولو كانت هذه الأخيرة من نفس الجنس ونفس الفصيلة ، بل ولو كانت متخفية — فقد عمد إلى تلوين بعض من النمل أثناء تجاربه . كما أنه أثبت أن النملة تعرف كل نملة أخرى فى خليتها المكونة من خمسمائة ألف فرد (٥٠٠٠٠٠) بل وأكثر من ذلك أثبت أنه لو غابت نملة عن خليتها لمدة سنة فليس ثمة ما يمنع بقية زميلاتها من التعرف عليها واستقبالها استقبالا ينم عن حب وترحيب . فكيف أمكن لكل واحدة منها أن تذكر زميلاتها بهذه السهولة ؟ .

لم يكن اللون هو الأساس . فالنملة التى لوّنها لوبوك بلون آخر لم تطرد ولم تضطهد ، بل قوبلت كإحدى أفراد الخلية ، وكذلك قوبلت النملة التى غمسها العالم فى الكلوروفورم — فلم تكن الرائحة هى الأساس . فهل تم

التعرف إذن من الجانبين على أساس الحديث أو على أساس حركات القرون الشعرية ؟ كلا فالسكارى من بين أفراد الخلية عرفهم زملاؤهم فى الحال رغم عجزهم عن القيام بأية حركة ، وميزوا بينهم وبين الأغراب من أفراد الخلايا الأخرى ، ثم إن النمل كان كله من نفس الفصيلة والجنس ، وعلى ذلك كان تمييز الأصدقاء من الأغراب قائما على أساس الشكل والتقاطيع لكل فرد على حدة — ولا ننسى أن ذلك كان بالنسبة لأفراد خلية مكونة من خمسمائة ألف ٥٠٠٠٠٠ !! فهل يوجد إنسان واحد يتمتع بمثل هذه الذاكرة ؟

الشاب : لا بالطبع .

الشيخ : أظهرت النملة فى تجارب فرانكلين وتجارب لوبوك مقدرة بديعة على ضم شتات أفراد الحقائق (التى صادفتها فى مآزق جديدة لم يسبق لها الوقوع فيها) ثم استنباط نتائج صحيحة بمجرد وضع الجزئيات جنبا إلى جنب — وهذه بالضبط هى عملية التفكير عند الإنسان . وبمساعدة الذاكرة يحتفظ الإنسان بمشاهداته واستنتاجاته فيتأملها ويضيف إليها ويساعد على تفاعلها وبذا يتقدم مرحلة فأخرى نحو نتائج بعيدة من غلاية الشاى إلى المحرك البخارى المعقد الذى يسير باخرة محيطية ؛ من الكد الشخصى إلى استخدام العبيد ؛ من سكنى الأكواخ إلى سكنى القصور ؛ من الصيد الذى تمليه الحاجة إلى الزراعة والغذاء المخزون ؛ من حياة البداوة إلى الحكومات المستقرة ذات السلطات المركزية ؛ من جموع غير متميزة إلى جيوش نظامية مجهزة .

والنملة تتمتع بالقدرة على الملاحظة وتتمتع بملكة التفكير تدعمها ذاكرة جبارة تحفظ وتعى . لذلك نجد حياتها صورة مطابقة للتقدم

البشرى تتمثل فيها المظاهر الأساسية لمدنية الإنسان — أفتعترض بعد هذا كله قائلا إن الأمر ليس إلا غريزة ؟

الشاب : لعل ذلك كان راجعاً إلى نقص فى ملكة التفكير من جانبي .

الشيخ : حسنا . لا تذكر ذلك لأحد ، وإياك وارتكاب نفس الخطأ مرة أخرى .

الشاب : ها نحن قد قطعنا شوطاً بعيداً فى هذا الموضوع ، ويبدو لى كنتيجة لبحثنا أن رغبتك متجهة نحو إقناعى بالتسليم بأن ليست هناك حدود عقلية تفصل الإنسان عن غيره من الكائنات التى لم يتم اكتشافها .

الشيخ : هذا هو ما أنتظر منك التسليم به . فمثل هذه الحدود لا وجود لها بالمرة — وليست هناك طريقة للتخلص من الاعتراف بهذه الحقيقة . والإنسان يتمتع بآلة عقلية أبدع وأقدر مما يتمتع به غيره من الحيوانات ، ولكن أسس تكوين هذه الآلة واحدة عند الجميع ، كما أنها تعمل دائماً بنفس الطريقة وليس باستطاعة الإنسان ولا الحيوان أن يسيطرا على العمليات التى تؤديها آلتهما العقلية — فعملها تلقائى آلى لا يخضع لرقابة او توجيه يبدأ حين يعن له البدء ، ويعجزك إن أردته قسرا على غير رغبة منه .

الشاب : وعلى ذلك فالإنسان يتكافأ مع سائر الحيوان فيما يتعلق بالأداة العقلية ، وليس بين الطرفين ثمة فارق ذو بال . اللهم إلا من حيث الدرجة وليس من حيث النوع ؟

الشيخ : تكاد المسألة أن تكون مثلما ذكرت — مقدرة عقلية هنا يقابلها المثل هناك ، نعم يوجد الكثير من نواحى النقص فى الجانبين ، فنحن لا يمكننا أن نفهم الجزء الأكبر من لغتها ، بينما الكلب والفيل مثلا

يتعلمان قدراً غير يسير من لغتنا . فالحيوانات إذن تفضلنا من هذه الناحية ، ولكنها من ناحية أخرى لا يمكنها أن تتعلم القراءة أو الكتابة أو غيرهما من العمليات العليا للإنسان ، سواء منها العقلية أو الجسمية ، وهنا يحق لهذا الأخير أن يفخر على سائر الكائنات .

الشاب : كلام معقول ! والآن لندع كلا ينعم بما أوتى من مقدرة وعلم . وإنما أريد أن أذكرك بحاجز ما زال قائماً ، حاجز عال مفرط فى العلو . ليس للحيوانات « وعى أخلاق » بينما الإنسان يتمتع بهذا الوعى الذى يرفعه عشرات الدرجات فوقها .

الشيخ : وعلى أى شىء بنيت هذا الظن ؟

الشاب : على رسلك يا سيدى ، ولنوقف الجدال لحظة . لقد احتملت كل ما فات من السخافات والترهات ، وفى ذلك الكفاية ، ولكنى لست مستعداً لوضع الإنسان مع غيره من الحيوانات فى نفس المستوى الأخلاق .

الشيخ : لم يكن فى نيتى أن أسمو بالإنسان إلى هذا الحد .

الشاب : أراك تشتط يا سيدى ! ولا أظن من الصواب أن تتخذ حديثنا موضوعاً للمزاح .

الشيخ : لست أمزح . كل ما فعلته هو أن ذكرت حقيقة واضحة بسيطة ؛ وإنى أسلم معك بأن مجرد إدراك الإنسان للفرق بين الخير والشر يثبت تفوقه العقلى على بقية الكائنات ؛ ولكن حين يذكرنا الواقع بأن الإنسان يمكنه أن يرتكب الشر ففى ذلك إثبات لانحطاط مداركه الأخلاقية عن مدارك أى كائن آخر يعجز عن عمل الشر . وأعتقد أن موقفى هذا لا غبار عليه .

الإرادة الحرة

الشاب : وما رأيك فيما يتعلق بالإرادة الحرة ؟

الشيخ : رأيي هو أنه لا وجود لشيء بهذا الاسم . هل كان ذلك الرجل الذي أعطى المرأة العجوز آخر شلن في جيبه ثم احتمل السير في العاصفة نحو بيته يملك شيئاً من حرية الإرادة ؟

الشاب : كان له أن يختار ، فإما البر بها وإما إهمالها لتألم . أليس كذلك ؟

الشيخ : بلى . كان هنـاك مجال للاختيار بين الراحة الجسمية في جانب ، والراحة الروحية في جانب آخر . كان نداء الجسم قويا بالطبع ولـكن الروح قامت بنداء مضاد . كان عليه أن يختار بين النداءين وقد فعل ، والآن خبرني من الذي قرر أو ما الذي قرر ذلك الاختيار ؟

الشاب : أي شخص — فيما عداك — سوف يقول بأن الرجل هو الذي قرره ، وأنه حين فعل ذلك استخدم إرادته الحرة .

الشيخ : نجد أنفسنا دائماً على ثقـة من أن كل إنسان قد وهب الإرادة الحرة وأن في وسعه — بل من واجبه — أن يستخدمها حين يعرض له الاختيار بين سلوك طيب وسلوك أقل طيبة ، ولـكننا مع ذلك رأينا في قصة ذلك الرجل أن ليست له إرادة حرة بالمرة . فمزاجه ، وتدريبه ، والمؤثرات اليومية التي شكلته وجعلت منه ذلك الشخص الذي نعرفه — كل هـذه العوامل « أجبرته » على تخليص المرأة العجوز ليضمن الخلاص لنفسه — لينقذ نفسه من ألم روحي ، من تعاسة لا تحتمل ، هو لم يقم بالاختيار ، بل قامت به من أجله قوى ليس في طاقته أن يوجهها . لم تخل دنيا الألفاظ يوماً من لفظة « الإرادة الحرة » وهي فيما

أرى تعبر عن فكرة ليس لها وجود فعلى . . . . لا وجود لها فى دنيا الحقائق ، وأنا أفضل ألا أستعمل هذا التعبير — إرادة حرة — بل أستعمل تعبيراً آخر .

الشاب : وما هو ؟

الشيخ : « الاختيار الحر »

الشاب : وما الفرق بينهما ؟

الشيخ : أولهما يشير إلى سلطة لا حد لهـا تتيح لك أن تعمل ما شئت ، وثانيهما لا يشير إلى أكثر من مجرد عملية عقلية هى القدرة على المفاضلة بين أحد تصرفين ، فتقرر أيهما أقرب إلى الحق والعدل .

الشاب : أرجو منك زيادة الإيضاح .

الشيخ : العقل يمكنه أن ينقد ويختار ، يمكنه أن يبين بحرية أى التصرفين ينطوى على الحق والعدل — ولكن مهمته تقف عند هذا الحد . لا يمكنه أن يذهب إلى أبعد من ذلك . ليست لديه السلطة ليأمر باتباع ما هو خير وترك ما هو شر ، فهذه السلطة ملك لغيره .

الشاب : ملك لمن ؟ . . . للإنسان نفسه ؟

الشيخ : بل ملك للآلة التى تقوم مقامه . ملك للاستعداد الفطرى وللشخصية التى تبنى حول هذا الاستعداد بالتدريب والبيئة .

الشاب : وهل هذه السلطة تضمن دائماً اتباع الخير ؟

الشيخ : لا بل هى تعمل ما بدا لها — فالآلة العقلية عند « جورج واشنجتون » مثلا لا تتبع إلا الخير ، بينما عقل « بيزارو » قد يعلم أى التصرفين خير وأيهما شر ، ولكن السيد المسيطر على كيان « بيزارو » من الداخل سوف يفضل ارتكاب الشر .

الشاب : أفهم من هذا إذن أن الأداة العقلية عند رجل شرير تقارن بهدوء ونزاهة بين تصرفين فتقرر أيهما أقرب إلى الحق والعدل .

الشيخ : نعم ، بينما الأداة الأخلاقية عنده سوف تتبع هذا أو ذاك وفقاً لتكوينها ، فلاتتقيد مطلقا بما قد يحسه العقل حيال الموضوع — أقصد إن كان للعقل إحساسات من هذا النوع ، وهو أمر أنكره . فما العقل هنا إلا « ترمومتر » هو يسجل الحرارة والبرودة ولا يعنيه من أمر هذه أو تلك كثير أو قليل .

الشاب : إذن فليس من حقنا الادعاء بأن الإنسان بمجرد معرفته أى التصرفين صواب وخير فسوف يجد نفسه مسيراً نحو فعل الخير ؟

الشيخ : سوف يقرر مزاجه وتدريبه طريق العمل الذى عليه أن يتبعه ولسوف يتبعه . هو لا يملك أن يمتنع إذ لا سيطرة له على أية مرحلة من مراحل الاختيار أوالتنفيذ ، ألم يكن من الصواب أن يخرج نبى الله داود قاصداً قتل جوليات فيقتله ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : فلعلك إذن كنت تقر نفس العمل وتعتبره حقاً وصوابا لو أنه صدر عن أى إنسان آخر ؟

الشاب : طبعا :

الشيخ : ولعله كان من الصواب أن يحاول نفس العمل إنسان ولد جبانا بطبعه ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : وأنت تعلم أنه ما من جبان ورث الجبن ونشأ عليه سوف يسمح لنفسه بمثل هذه المحاولة . أليس كذلك ؟

الشاب : بلى .

الشيخ : وكذلك تعلم أن تكوين ومزاج ذلك الجبان سوف يقومان حائلا لا يمكن تخطيه فى وجه كل محاولة من هذا النوع . أليس كذلك ؟

الشاب : بلى أعلم ذلك .

الشيخ : أظنه يرى بمنتهى الوضوح أن من الصواب أن يحاول ما فعله داود ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : أليس عقله متمتعاً « بحرية الاختيار » حين يقرر إذا ما كانت المحاولة التى يعتزمها صواباً أو خطأ ؟

الشاب : بلى .

الشيخ : إذن فلو تسبب جبنه الموروث فى منعه عن القيام بهذه المحاو. فماذا يكون مصير إرادته الحرة ؟ بل أين يمكن أن نجد هذه الإرادة الحرة ؟ ولماذا ندعى أن له إرادة حرة فى الوقت الذى ترينا الحقائق المجردة أنه لا يملك قوة بهذا الاسم ؟ ولماذا نحاول بالباطل فنقول « بما أنه رأى الحق كما رآه داود فهو لا بد فاعل ما فعله داود ؟ » لماذا نفرض نفس القوانين على الماعز والأسد ؟

الشاب : أتعنى بذلك أن لا وجود حقيقى لشىء اسمه الإرادة الحرة ؟

الشيخ : هذا هو ما أعتقده ، هناك إرادة من نوع ما ولكن لا تأثير لها البتة على « الإدراك العقلى » للصواب والخطأ ، كما أنها غير خاضعة لهذا الإدراك . فمثلا الاستعداد الفطرى والتدريب عند نبى الله داود تصدر عنهما إرادة . هذه الإرادة لا تخرج عن كونها قوة جبرية ، فكان على داود أن يطيع قراراتها ؛ أى أنه لا يملك الاختيار ، وكذلك الاستعداد الفطرى والتدريب عند الجبان تصدر عنهما إرادة من نوع آخر ؛ وهذه بدورها قوة جبرية أيضا ، هى تأمره أن يتحاشى الخطر فيطيع أمرها ،

فلا مجال عنده إذن للاختيار ، ولكن ما من شجاع أو جبان يملك شيئا اسمه « الإرادة الحرة » — أى الإرادة التى قد تؤثر الصواب أو ترتكب الخطأ وفقا لما يقرره العقل من أحكام .

مقياس القيم

أهو موحد أم مزدوج ؟

الشاب : وثمة نقطة أخرى تشغلنى ، لا أعلم أين بالضبط تقيم الحد الفاصل بين الأطماع المادية والأطماع الروحية .

الشيخ : أنا لا أقيم حدوداً بالمرة .

الشاب : وكيف ذلك ؟

الشيخ : الأطماع المادية لا وجود لها البتة ، هى اسم على غير مسمى ، وإنما كل الأطماع روحية .

الشاب : كل التمنيات والرغبات والمطامح روحية وليست مادية ؟

الشيخ : نعم فإن الضمير ، ذلك السيد المسيطر على كيانك الداخلى ، يتطلب منك استرضاءه هو فى كل عمل تعمله ؛ وهو فى نفس الوقت لا يطالبك (بل ولا يشغل نفسه) بأمر غير هذا .

الشاب : أفإن طمع فى مال الغير — أليست هذه رغبة مادية صريحة بل صارخة ؟

الشيخ : كلا فما المال إلا رمز — يعبر بشكل حسى عن رغبة روحية ، وكل شىء مما تدعونه المادة إن رغبت فيه فإنما تطمع فى رمز ، إذ أنت لا تريده لذاته بل لأنه سوف يرضى روحك مؤقتا .

الشاب : أرجو أن توضح بمثال .

الشيخ : لنفرض أن الشيء الذى أردته هو قبعة جديدة ؛ ولنفرض أنك حصلت على ما أردت ، فأرضيت بذلك روحك . ولكن على فرض أن أصدقاءك سخروا من القبعة فإنها تفقد قيمتها فى الحال ، وتغدو أنت خجلا منها ، فتستبعدها من أمامك إلى حيث لا رجعة .

الشاب : أظننى قد فهمت . استمر .

الشيخ : أليست هى نفس القبعة ؟ طبعاً . . . . لم يتغير فيها شيء بالمرة . ومعنى ذلك أنك لم ترد القبعة فى حد ذاتها ، وإنما أردت ما ترمز إليه — أردت شيئاً يرضى روحك ؛ وحين فشلت القبعة فى ذلك الإرضاء ضاع كل ما لها من قيمة . إذن فليست هناك قيم مادية ، بل كل القيم روحية ، وأنت قد تطيل البحث عن مثال واحد للقيم أو المعايير المادية ، ولكن تأكد أن بحثك سوف يذهب أدراج الرياح لسبب بسيط وهو أن هذه المعايير لا وجود لها . وحيثما بدت لك قيمة شيء فسوف ينبئك البحث والتحليل أنها قيمة روحية (رغم استتارها فى كثير من الأحيان) . . فإن استبعدتها فقد الشيء كل ما له من اعتبار فى نظرك — مثله فى ذلك مثل القبعة .

الشاب : أفى استطاعتك أن تدخل النقود فى نطاق ما ذكرت ؟

الشيخ : نعم . فهى ليست إلا رمزاً قيمته المادية معدومة ، أنت تظن أنك ترغب فى النقود لذاتها ولكن الأمر غير ذلك ، أنت تريدها من أجل الرضى النفسى الذى سوف تجلبه ، فإن أوتيت المال ولم تؤت الرضى زالت عن المال قيمته فى نظرك .

وإليك قصة مؤثرة لرجل حرمه الجشع راحته فظل يَكِدُّ كَدَّ العبيد حتى جمع ثروة أسعدته ، ثم عم وباء لم يمهله أكثر من أسبوع

حتى وجد نفسه وحيداً بعد أن فقد كل عزيز لديه . زالت عن المال قيمته ، وأدرك صاحبنا أن ثروته إنما أسعدته يوم أسعدت أهله — رضيت نفسه لرضاهم وهم ينعمون بكل ما استطاع المال أن يشتريه من أسباب الرفاهة والهناء .

وأعود فأنكر من جديد كل قيمة مادية للمال . فأنت إن استبعدت القيمة الروحية نزلت بالمال إلى مرتبة القمامة والفضلات ، ولقد حق نفس القول على كل الماديات بدون استثناء سواء أكانت كبيرة أم صغيرة ، عظيمة أم حقيرة ؛ فالتاج ، والصولجان ، والبنسات ، والجوهرات الزائفة ، والشهرة المحلية فى حيز القرية المحدود ، والشهرة العالمية لمن حقق شهرة عالية — كل هذه تستوى فى أن ليست لها قيمة مادية ؛ فإن أرضت الروح فهى ثمينة قيمة ، وإن لم ترضها فهى همل وعدم .

مشكلة

الشاب : لقد أشكلت علىّ الأمر بتعبيراتك المطاطة فأنت أحياناً تعمد إلى تقسيم الإنسان إلى شخصيتين أو ثلاث لكل منها سلطاته وأحكامه ومسئولياته ؛ وحين تعرضه بهذه الطريقة تتعذر علىّ الإحاطة به كوحدة . أما إن تحدثت أنا عن الإنسان فلا أعنى غير وحدة شاملة يسهل إدراكها وتأملها .

الشيخ : هذه فكرة لطيفة ومناسبة . . . لو أنها كانت صحيحة . لنفرض أنك تحدثت فذكرت فى حديثك كلمة مثل كلمة « جسمى » — فعلى من تدل هذه الياء فى نهاية كلمتك ؟

الشاب : تدل علىّ أنا . . . هى قائمة مقام الـ « أنا » .

الشيخ : فالجسم إذن موضوع للملكية ، والذى يملكه هو « أنا » . والآن حدثنى عن ماهية هذه الـ « أنا » .

الشاب : الـ « أنا » هى الوحدة الشاملة ؛ هى ملك عام غير مقسم ، وتلابس الذات ملابسة كلية .

الشيخ : لو أن الـ « أنا » أعجبت بقوس قزح ، فهل الذى يعجب هو كل الـ « أنا » بما فى ذلك الشعر واليدان والكعبان ؟

الشاب : بالطبع لا . بل هو عقلى الذى يعجب .

الشيخ : وعلى ذلك فقد بدأت تقسم الـ « أنا » بنفسك ، وكل إنسان يفعل ذلك ، بل يجد نفسه مضطراً لأن يفعل ذلك . فما هى إذن هذه « الأنا » على وجه التحديد ؟

الشاب : أظن من الواجب تقسيمها لهذين القسمين : الجسم والعقل .

الشيخ : أتظن ذلك ؟ لو فرضنا أنك قلت هذه الجملة « أنا أعتقد أن الأرض كروية » فمن هو ذلك « الأنا » الذى يتحدث ؟

الشاب : العقل .

الشيخ : ولو قلت « أنا متألم لفقد والدى » فمن هو «الأنا» فى هذه الحالة ؟

الشاب : العقل .

الشيخ : هل يقوم العقل بعملية عقلية حين يختبر ثم يقبل الدليل على أن الأرض كروية ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : وهل يقوم بعملية عقلية حين يتألم لفقد والدك ؟

الشاب : لا . ليس فى هذا استخدام بالمعنى الصحيح لخلايا المخ ، فالعقل لا يقوم بمجهود ، بل المسألة مجرد « شعور » .

الشيخ : إذن فمصدر هذه العملية ليس فى عقلك بل فى مجالك الأخلاقى .

الشاب : أسلم معك بذلك .

الشيخ : هل عقلك جزء من وجودك المادى ؟

الشاب : لا . بل مستقل عنه ، فطبيعة العقل روحية .

الشيخ : وبما أن العقل روحى فلا أظنه يتأثر بالمؤثرات المادية ؟

الشاب : كلا .

الشيخ : هل يظل العقل مفيقاً حين يثمل الجسد ؟

الشاب : كلا .

الشيخ : وإذن فهناك أثر للمؤثر الجسمى المادى .

الشاب : يبدو لى ذلك .

الشيخ : قد يصاب إنسان بكسر فى الجمجمة يتسبب عنه خلل فى العقل ، فكيف يحدث ذلك لو أن العقل كان روحياً ومستقلا عن المؤثرات الجسمية؟

الشاب : حسناً . . . لا . . . لا أدرى .

الشيخ : حين تصاب بألم فى قدمك فكيف تعرف ذلك ؟

الشاب : أشعر به .

الشيخ : ولكنك لا تشعر به حين تنقل الأعصاب رسالة الألم إلى المخ . ومع ذلك أليس المخ مركز العقل ؟

الشاب : أظن ذلك .

الشيخ : ولكنه ليس روحياً إلى الحد الذى يكفل له معرفة ما يحدث خارج نطاقه المباشر بدون مساعدة رسول من الجسم نفسه . ومن هنا ترى أن مشكلة الـ « أنا » ليست بسيطة بالمرة . فأنت تقول « أنا أعجب بقوس قزح » أو « أنا أعتقد أن الأرض كروية » وفى كل من هاتين الحالتين

نجد أن الـ « أنا » لا تتحدث كوحدة شاملة ، وإنما يحدثنا الجزء العقلى منها . ثم إذا بك تقول « أنا متألم » . وفى هذه الحالة أيضاً لا تتحدث الـ « أنا » كوحدة شاملة وإنما يحدثنا الجزء الأخلاقى منها .

تدعى أن العقل روحى محض ، ثم إذا بك تقول « أنا متألم » وإن بحثت عن دلالة الـ « أنا » فى هـذه الحالة وجدتها خليطاً من العقل والروح ، وكلنا حين نشير إلى الذات فإشارة مبهمة بهذه الطريقة — وما لنا من طريقة غيرها ، نحن نتخيل وجود سيد أو ملك يتحكم فيما تدعوه أنت باسم « الوحدة الشاملة » ونعبر عنه بكلمة « أنا » . ولـكن حين نحاول تعريفاً له نجدنا عاجزين عن فعل ذلك .

فى إمكان العقل والإحساسات أن يعمل كل منهما مستقلا عن الآخر تمـام الاستقلال — نشهد ذلك فنقلب النظر بحثاً عن « حاكم » يفرض سيادته على كل منهما ، حاكم يمثل فـكرة الـ « أنا » هذه تمثيلا محدداً لا جـدال فيه ويمكننا من معرفته ماذا نقصد ، وعمن نتحدث وعن أى شىء نتحدث . كلما استعملنا ضمير المتكلم المفرد .

ولـكننا فى النهـاية نيأس من البحث ونجد أنفسـنا مضطرين للاعتراف بعجزنا عن اكتشاف مثل هذا الحاكم ، وأنا أرى أن الإنسان آلة معقدة يقوم كل قسم منها بعملياته الخاصة : فالقسمان الأخلاقى والعقلى يعملان بشـكل « أوتوماتيـكى » وفقاً لدفعات عليها سيد داخلى لا تزيد عناصر تكوينه عن الاسـتعداد الفطرى مضافاً إليه تجمع آلاف النتائج المختلفة عن المؤثرات الخارجية والتدريب ؛ آلة وظيفتها الوحيدة هى ضمان الرضا لذلك السيد الداخلى سواء أكانت نزعات طيبة أم شريرة ، آلة إرادتها مطلقة تتطلب الطاعة ، ولا تلقى غير الطاعة .

الشاب : ربما كانت الـ « أنا » هي النفس .

الشيخ : ربما . ولكن ما هي النفس ؟

الشاب : لا أدرى .

الشيخ : ولن تجد أحداً يدرى .

النزعة ذات السيادة

الشاب : ما هو « السيد » ؟ أو (إن استخدمنا التعبير الدارج) ما هو الضمير ؟ أسألك الإيضاح .

الشيخ : هو ذلك الحاكم المطلق (والمبهم في نفس الوقت) الذى أودع داخل الإنسان والذى يجبره على إرضاء رغباته ، يمكن أن تسميه باسم « النزعة ذات السيادة » ، التعطش لرضا النفس .

الشاب : وأين مستقر تلك النزعة ؟

الشيخ : في الكيان الأخلاقى للإنسان .

الشاب : وهل تتفق أوامرها دائماً مع مصلحة الإنسان ؟

الشيخ : هي لا تعير هذه المصلحة أدنى اهتمام ، بل هي لا تعنى بغير إرضاء رغباتها الخاصة . يمكن تدريبها على تفضيل الأشياء التي تعود على الإنسان بالخير ، فإن فضلتها فما ذلك إلا لأن هذه الأشياء ترضيها أكثر مما يرضيها أى شيء آخر .

الشاب : أتعنى أنها حتى لو دربت على اعتناق مثل عليا طيبة فهي ما زالت تبحث عن رضاها هي أولا ، بدلا من أن تبحث عن خير الإنسان الذى تستقر بين جنبيه .

الشيخ : سواء درّبت أولم تدرب فهى لا تعنى بمصلحة الإنسان أوخيره . . . ولا تشغل نفسها مطلقاً بمثل هذه المسائل .

الشاب : يبدو لى أنها قوة «لا أخلاقية» تستقر فى الكيان الأخلاقى للإنسان .

الشيخ : نعم ، هذا هومقرها . ولكنها ليست قوة شريرة كما تظن بل كل ما فى الأمر أنها عديمة اللون — دعنا نسميها غريزة — غريزة عمياء ، لا وعى لها ولا تفكير ، لا تميز بين المقاييس الأخلاقية الطيبة والمقاييس السيئة ولا يعنيها فى شيء ما يصادفه الإنسان من نتائج ، طالما هى قد أمنت طريقها نحو الرضا والاكتفاء ، ولسوف تعمل دائماً على تأمين هذا الطريق .

الشاب : هى تبحث عن المال ، ولعلها تعتقد أن فى ذلك خيراً للإنسان ؟

الشيخ : ولكنها ليست دائمة البحث عن المال ، ولا عن القوة ، ولا عن المركز ، ولا عن أى كسب مادى آخر . وهى فى كل الحالات إنما تبحث عن الرضى الروحى بصرف النظر عن الوسيلة إليه ، رغباتها تتقرر بفعل المزاج أوالاستعداد الفطرى للفرد . المزاج ، الضمير ، الاستجابة ، النهم الروحى — هذه أسماء ترمز كلها إلى نفس الشيء . أما حدث أن سمعت عن شخص لا يعنيه المال فى شيء مطلقاً ؟

الشاب : بلى . سمعت أن أحد العلماء رفض ترك حجرته المتواضعة وكتبه حين عرض عليه أن يشغل عملا بمرتب كبير فى أحد دور الأعمال .

الشيخ : كان عليه أن يرضى النزعة ذات السيادة — أو بعبارة أخرى مزاجه ونهم روحه . وهذه فضلت الكتب على المال . وهل تعرف حالات أخرى ؟

الشاب : نعم . حالة الناسك .

الشيخ : هذا مثال طيب . فالناسك يحتمل الوحدة ، والجوع ، والبرد ، وعشرات المخاطر ليرضى ذلك الحاكم المطلق ، ليرضى تلك النزعة ذات السيادة التى تتحكم فى كيانه والتى تفضل الصلاة والنسك ، تفضل التأمل والزهد على كل ما يمكن أن يأتى به المال من مظاهر العز أو النعمة ، ألديك أمثلة غير هذى ؟

الشاب : نعم . الفنان والشاعر والعالم .

الشيخ : إن « الحاكم المطلق » عند كل من هؤلاء يفضل ما تبعثه هـذه المهن من أسباب السعادة بصرف النظر عن مقدار ما يتقاضونه من أجر على أعمالهم . ولعله الآن قد تحقق لديك أن «النزعة ذات السيادة» تولى اهتمامها لأشياء كثيرة بجانب ما يدعونه بالكسب المادى والرخاء المادى أو العملة . . . وما إلى ذلك من تعابير ؟

الشاب : أعتقد أن من واجبى الاعتراف بذلك .

الشيخ : أحسنت . لعل هناك من ذوى الأمزجة التى ترفض التقيد بأعباء ومشاغل ومظاهر المناصب الكبرى بقدر ما هنالك ممن يسيل لعابهم لها . فالنوع الأول من الأمزجة يبحث عن إرضاء الروح ولا يبحث عن شىء سواه ؛ وهذا هو بالضبط ما يبحث عنه النوع الآخر . وكلاهما لا يذهب فى بحثه إلى أبعد من هذه الرغبة فى إرضاء الروح . فإن اعتبرت أحدهما دنيئاً ، فكلاهما دنىء ، بل هما يتساويان فى دناءتهما نظراً لأن الغاية المرجوة هى هى بالضبط فى كلتا الحالتـين . وفى كلتا الحالتين يتم الاختيار تبعاً لما يقرره المزاج — والمزاج كما تعلم قوة فطرية . . . . موروثة لا مكتسبة .

خاتمـــة

الشيخ : هل سافرت لقضاء عطلة فى الأيام الأخيرة ؟

الشاب : نعم . قمت برحلة جبلية استغرقت زهاء الأسبوع . هل أنت على استعداد للحديث ؟

الشيخ : على تمام الاستعداد . بأى شىء نبدأ ؟

الشاب : بينما أنا مستلق فى فراشى أستجم قضيت يومين وليلتين أستعيد كل ما مر بيننا من أحاديث وأقلب الفكر فيها ناقدا ، فخرجت من تأملاتى بهذه النتيجة أن . . . أنك . . . هل تنوى أن تنشر هذه الخواطر عن الإنسان فى يوم من الأيام ؟

الشيخ : لقد ظل ضميرى متردداً خلال السنوات العشرين الماضية فيما إذا كان يصدر إلىّ الأمر بتسجيل هذه الأفكار ونشرها — والآن لا أدرى هل أنت بحاجة لأن أخبرك بالسبب فى عدم صدور أمره حتى الآن ، أم هل أنت قادر على تفسير مثل هذه المسألة البسيطة بدون مساعدتى ؟

الشاب : نعم . هى البساطة بعينها . لقد حركت مؤثرات خارجية ذلك « السيد الداخلى » نحو إصدار الأمر ، ولكن مؤثرات خارجية أقوى عطلت ذلك القرار . وبدون المؤثرات الخارجية ما كان يتسنى لأى من هاتين الدفعتين أن تولد بالمرة نظراً لأن عقل الإنسان يعجز عن ابتكار فكرة من تلقاء نفسه .

الشيخ : أصبت ! استمر .

الشاب : ومسألة النشر أو عدمه ما زالت بين يدى سيدك (أى ضميرك)

فإذا حدث يوماً أن جاء مؤثر خارجى ودفعه نحو اتخاذ قرار بالنشر فلسوف يصدر أمره ولسوف يطاع فيما أمر .

الشيخ : هذا صحيح . وماذا بعد ؟

الشاب : بعد شيء من التفكير وصلت إلى الاعتقاد بأن أفكارك إن نشرت فسوف تكون مبعثاً للخطر . أرجو ألا تؤاخذنى .

الشيخ : أؤاخذك ؟ أنت لم تقل شيئاً تؤاخذ عليه . فما أنت إلا أداة — أنت بوق لا أكثر ، والأبواق غير مسئولة عما يقال خلالها . فالمؤثرات الخارجية (التى ظلت تتجمع خلال حياتك فى شكل تعاليم وتدريبات وآراء ، وأحقاد وغيرها من المتعلقات ذوات الأهمية الثانوية) أقنعت « السيد الداخلى » عندك أن نشر هذه المعتقدات سوف تتسبب عنه أضرار ، وهذه فكرة طبيعية جداً ، بل فكرة منتظرة ، بل أكثر من هذا وذاك لا سبيل إلى تلافيها .

استمر — وأرجو أن تظل على ولائك لعاداتك العقلية كيما تسترسل فى حديثك سهلا طيعاً . بل وأرجو أن تتحدث عن نفسك وتخبرنى بما يراه « سيدك الداخلى » فى هذا الصدد .

الشاب : حسناً أول عيوبها أنها عقيدة هدامة ، ليست قادرة على الإيحاء ، أو بعث الحماسة ، أو التسامى بالإنسان ، هى تحرم الإنسان من مجده وكبريائه وبطولته ، تنكر عليه حقه فى التقدير الشخصى ، حقه فى المدح . هى لم تكتف بأن تنزلت بعقله إلى مستوى الآلة بل أنكرت أيضاً كل سيطرة له « على هذه الآلة » هى تجعل منه مجرد « طاحونة بن » ثم لا تسمح له بملء الطاحونة ولا بإدارة اليد ، إذ تنحصر وظيفته الوحيدة فى عملية الطحن نفسها — فيخرج مسحوقاً لعله ناعم ولعله

خشن ، فهذا يتوقف على الطريقة الذى صنع بها ، وأما بقية العمليات فتقوم بها المؤثرات الخارجية .

الشيخ : أحسنت عرض نقدك . خبرنى ..... ما الصفات التى تجعل إنساناً يعجب بإنسان آخر ؟

الشاب : الذكاء والشجاعة ، قوة البنية، جمال الوجه ، الإحسان ، الكرم ، التسامح ، الرحمة ، البطولة . . . وغيرها وغيرها .

الشيخ : سوف أكتفى بهذا القدر . كل ما ذكرت « عناصر أولية » بينما الفضيلة والجلد ، والتدين ، والصدق ، والولاء ، والمثل العليا — هذه وكل مايتصل بها من الصفات التىامتلأت بها المعاجم ليست إلا مشتقات أخذت عن تلك العناصر الأولية إما بطريق الخلط أو الربط أو التركيز أو التخفيف . فهى أشبه ما تكون باللون الأخضر الذى ينتج من مزج اللونين الأزرق والأصفر ، أو لعلها شبه الدرجات التى يمكننا إعدادها من اللون الأحمر مثلا حين نبدل من مقدار تركيز ذلك اللون .

فهناك سبعة ألوان أولية جمعت كلها فى «الطيف الشمسى» وبوسعنا أن نصنع من هذه الألوان السبعة قرابة خمسين درجة تحمل كل منها اسماً خاصاً . وأنت قد ذكرت العناصر الأولية « للطيف الإنسانى » ، كما ذكرت مزيجاً واحداً — أعنى البطولة — فهى تتكون من الشجاعة والتسامح . أفى إمكانك أن تخبرنى أى عنصر من هذه العناصر الأولية يمكن لصاحبه أن يصنعه بنفسه ؟ أهو الذكاء ؟

الشاب : لا .

الشيخ : لماذا ؟

الشاب : لأنه يولد مالكا لذكائه .

الشيخ : إذن فلعله قوة البنية ؟ أو جمال الوجه ؟

الشاب : كلا . فهذه تورث ولا تصنع .

الشيخ : إذن فهات غيرها من العناصر الأخلاقية الأولية — الإحسان ، الكرم ، التسامح ، الرحمة ، بذور طيبة إن تولتها المؤثرات الخارجية بالرعاية خرجت منها تلك المركبات العديدة من الفضائل التى امتلأت بأسمائها المعاجم ، فهل يصنع الإنسان بذرة من هذه البذور ؟ أم أنها تولد معه ؟

الشاب : تولد معه .

الشيخ : من الذى يصنعها إذن ؟

الشاب : الله .

الشيخ : لمن يعود الفضل فيها ؟

الشاب : لله وحده .

الشيخ : ولمن يحق التمجيد والمدح اللذان ذكرتهما فى حديثك ؟

الشاب : لله وحده .

الشيخ : إذن فأنت الذى تحقر شأن الإنسان . جعلته يطالب بالمجد والمدح والثناء كنتيجة حتمية لما يملكه من صفات طيبة — زخرف كل ما فيها مستعار . هو لم يكسب شيئاً منه بنفسه ، لم يخلق ذرة منه بمجهوده ، أردته منافقاً مغروراً فهل فعلت أنا به أسوأ مما فعلت أنت ؟

الشاب : لقد جعلت منه آلة .

الشيخ : ومن الذى خلق تلك الآلة بكل ما لها من دقة وجمال . . . أهو الإنسان ؟

الشاب : لا بل خلقها الله .

الشيخ : ومن خلق ذلك القانون الذى بمقتضاه توقع الآلة الإنسانية على « البيانو » لحناً له روعته وله صعوبته ، فلا تخطىء رغم أن العازف قد

يكون مشغولا بالتفكير فى شىء آخر أو بالحديث مع صديق ؟

الشاب : خلقه الله .

الشيخ : ومن خلق الدم ؟ من خلق تلك المضخة البديعة التى تعمل ليل نهار من تلقاء نفسها فتبعث تيار الحياة متجدداً بدون ما حاجة إلى مساعدة أو نصيحة من جانب الإنسان ؟ من خلق العقل الذى يسير ولا يسيّر ، فيتناول من الموضوعات ما يحلو له غير عابىء بإرادة الإنسان أو رغباته . . . فيكدح طوال الليل إن شاء متجاهلا صيحات صاحبه أن ارحمنى ودعنى أنام ؟ خلق الله هذه الأشياء كلها ؟

وإذن فلست أنا الذى جعل من الإنسان آلة بل هكذا خلق . كل ما فعلته هو أن وجهت انتباهك نحو الحقيقة . فهل أخطأت بهذا التوجيه ؟ هل هى جريمة ؟

الشاب : أرى من الخطأ عرض فكرة تؤدى لنتائج غير محمودة .

الشيخ : استمر .

الشاب : يجب أن نعترف بالواقع ، فكم من مرة قيل للإنسان بأنه أسمى آية من آيات الخلق والإبداع — هو يؤمن بهذه الفكرة . . ولم يتطرق إليه أدنى شك فى صحتها فى أى عصر من العصور ، سواء أكان يتخبط فى عريه ووحشيته أم يختال فى ثوب المدنية الأرجوانى الفاخر . خفف الاعتقاد من أعباء قلبه وأسعد أيام عيشه فكان من أثر اعتداده وإعجابه بنفسه ، كان من أثر ارتياحه للإنتاج الذى حسبه رهيناً بإرادته ، واستمتاعه بالمدح والإطراء اللذين عادا عليه من هذا الإنتاج — كان من أثر هذا كله أن راح يتسامى فى نظر نفسه إلى أرفع مستويات العزة والحماسة والطموح . وبالاختصار عاد يرى أن الحياة جديرة بأن يحياها .

ولـكن نظريتك تلغى هذا كله ؛ فهى تتنزل بالإنسان إلى مستوى الآلة وتحيله نسياً منسياً . تنكمش فى نفسه بواعث الاعتداد فتغدو مجرد زهو أجوف فهو إن جاهد كيفما شاء له الجهاد فلن يصبح أحسن حالا من أشد جيرانه ذلة أو غباء ، لن يطرب بعد اليوم ، لن يرى فى الحياة ما يغريه بحب الحياة .

الشيخ : أتعتقد ذلك حقاً ؟

الشاب : بكل تأكيد .

الشيخ : هل اتفق لك فى وقت من الأوقات أن رأيتنى حزيناً أو مهموماً ؟

الشاب : كلا .

الشيخ : ولـكنى مؤمن بهذه الأفـكار ، وما شقيت بهذا الإيمان . فلماذا؟

الشاب : بالطبع سوف تفسر المسألة على أنها «مزاج» أو «استعداد فطرى» لم يعوزك التفسير حين بنيت نظريتك .

الشيخ : هذا صحيح فالمزاج يولد مع الإنسان ، فإن ورث مزاجاً تعساً يشقيه لم يقدر شىء على إسعاده ؛ وإن ورث مزاجاً مرحاً يرضيه لم يقدر شىء على إيلامه .

الشاب : وكيف ذلك ؟ ألا تؤلمه عقائد هدّامة تقتل فى نفسه الإيمان بالحياة ؟

الشيخ : عقائد ؟ عقائد ؟ مجرد عقائد ؟ مجرد مبادىء ؟ . . . لا حول لها ولا قوة يا سيدى ! فهى إنما تجاهد عبثاً أمام تيار « المزاج الفطرى » .

الشاب : لا يمكننى أن أصدق هذا ولن أصدقه .

الشيخ : أراك تسرعت فى الحـكم ولم تـكلف نفسك عناء دراسة الحقائق ، والآن أريدك أن تخبرنى من أكثر أصدقائك تفـاؤلا « برجس » أليس كذلك ؟

الشاب : بلى .

الشيخ : ومن أكثرهم تشاؤما ؟ « هنرى آدمز » ؟

الشاب : بدون شك .

الشيخ : أعرفهما جيداً . . . كلاهما شاذ ، لقد تغالت الطبيعة فى إعداد كل منهما فتناقض مزاجهما تناقض القطبين . تاريخ حياتهما متشابه إلى حد بعيد . ولكن انظر كيف كانت العاقبة عند هذا وذاك . يتقاربان من حيث السن — فكلاهما حوالى الخمسين . عاش برجس طوال حياته مرحا متفائلا سعيداً ، وعاش آدمز بَرِماً متشائماً تعساً . حاولا فى شبابهما أن يجربا حظهما فى عالم الصحافة فلم يفلحا . لم يُعِر برجس المسألة أدنى اهتمام بينما بلغ اليأس بآدمز أن فقد القدرة على الابتسام ؛ ظل يشكو ويتحسّر على ما فات ؛ فرض على نفسه عذاب الندم الذى لا يجدى ؛ نسب إلى نفسه الإهمال والتقصير — « لو أننى كنت فعلت كذا ولم أفعل كذا لكنت من المفلحين » .

ثم جرّبا حظهما فى عالم القانون فأخفقا من جديد . ظل برجس سعيداً لأنه لا يملك إلا أن يكون سعيداً . وزاد آدمز تعاسة لأنه لا يملك إلا أن يكون تعساً ، ومنذ ذلك الوقت ظل هذان الرجلان يجربان حظهما فى مختلف المجالات فتنتهى محاولاتهما دائماً بالفشل ، كان برجس يخرج من كل محاولة سعيداً بينما يحدث العكس عند آدمز . فكأنه قد تأكد لدينا الآن أن المزاج الفطرى لكل من هذين الرجلين ظل ثابتاً لا يتغير خلال جميع ما تعرضت له مصالحهما المادية من ضربات . ولننظر الآن كيف كانت الحالة بالنسبة لمصالحهما غير المادية .

كان كل منهما ديموقراطيًّا متحمساً ؛ ثم انقلبا جمهوريين متحمسين

كذلك ؛ وبنفس الحماسة قررا فيما بعد الابتعاد عن الحزبية : كان برجس دائماً يشعر بالسعادة كلما قرر اعتناق مذهب سياسي جديد أو هجر مذهب قديم ، بينما آدمز لا يحس ولا يرى غير التعاسة والشقاء . أما عن المذهب الديني فقد تبع كل منهما مذهب البرسبتيريان ، ثم مذهب اليونيفرسالست ، ثم المثوديست ، ثم الكاثوليك ، ثم البرسبتيريان من جديد ، ثم المثوديست من جديد . كان برجس يشعر بمنتهى الارتياح نحو هذه الهجرات الروحية ، وأما آدمز فلم يذق للراحة طعماً . وكلاهما الآن يجربان « العلم المسيحى » ويمكننا التنبؤ بالنتيجة المنتظرة ، بل الحتمية . وأؤكد لك أنه ما من مذهب سياسي أو عقيدة دينية تقدر على إشقاء برجس أو إسعاد صاحبه بل المسألة رهينة بمزاج كل منهما ، فالعقائد تكتسب ، بينما الأمزجة تورث ، والعقائد عرضة للتبديل ، بينما المزاج لا يمكن تغييره أو تحويله .

الشاب : ولكنك اتخذت موضوعا لمثالك حالتين من المزاج المتطرف .

الشيخ : نعم . وإن أنواع الأمزجة الأخرى ليست إلا حالات أقرب إلى الاعتدال تقع بين هذين النقيضين ، ولكن القانون هو هو لا يتغير ؛ فإن كان عنصر السعادة أو عنصر الشقاء فى أحد الأمزجة لا يزيد عن الثلثين مثلا فليس بوسع مذهب سياسي أو عقيدة دينية أن تغير هذه النسب . والغالبية العظمى من الأمزجة يتعادل فيها العنصران تقريباً ، فيزول عنها كل أثر للتهويل المتطرف ، وهذا يمكّن كل أمة من أن توائم بين نفسها وبين ظروفها السياسية والدينية فتحبها وترضى بها وتفضلها على ما عداها .

الأمم لا تفكر وإنما تحس ؛ تأتيها إحساساتها عن طريق أمزجة

بنيها لا عن طريق عقولهم ، وفى الإمكان إقناع أية أمة (بالظروف الواقعية وليس بالحجج اللفظية) أن تقبل أى نوع من أنواع الحكومات أو العبادات يمكن أن تخطر على فكر بشر . ففى الوقت المناسب سوف تغيّر الأمة من طبيعة نفسها حتى تلائم التغييرات المرغوب فيها ؛ ثم لا تلبث أن تفضلها على ما عداها ؛ ثم تناضل فى النهاية طوعاً من أجلها .

وإن أردت مثالا فأمامك التاريخ كله . أمامك الإغريق والرومان ، والفرس ، والمصريون ، والروس ، والألمان ، والفرنسيون ، والانجليز ، والأسبان ، والأمريكيون ، واليابانيون ، والصينيون ، والهندوس ، والأتراك ..... الخ ، أمامك قرابة الألف من الأديان منها ما هو جامح عنيف ، ومنها ما هو هادئ سمح . أمامك كل نوع من الحكومات ما يمكن أن يخطر على بال . كل أمة منها تعلم علم « اليقين » أن لديها دين الحق الذى لا دين بعده ، أو مذهب الحكم الذى لا مذهب غيره ؛ تحتقر معتقدات وأنظمة كل من عداها غير عالمة أنها ليست إلا قطيعاً من الحمر . كل أمة تفخر بتفوق موهوم وتؤمن إيماناً أعمى بأنها هى التى اختصها الله برعايته ؛ يدعوه الجميع بثقة لا يأتيها الشك أن يتولاهم ويوفقهم فى زمن الحرب ، ثم يدهشهم أن يستجيب الله للعدو دونهم ، ولكنهم قادرون بحكم العادة على أن يلتمسوا عذرا ليعودوا للشكر والدعاء ، وبالاختصار فإن الجنس البشرى بأجمعه راض وراض دائماً ، بل وليس ثمة ما يزحزحه عن رضائه أو يزحزح ذلك الرضاء نفسه ؛ هو جنس يملؤه الإحساس بالسعادة والامتنان والزهو ، بصرف النظر عن نص الدين الذى يتبعه أو نوع الحكم الذى يخضع له .

هل تحدثت بغير الحق ؟ كلا ، وأنت تعلم ذلك . هل يسعد البشر بما هم فيه ؟ نعم ، وأنت تعلم ذلك . فلو أجلت الفكر لحظة فيما هم محتملون من مكاره مع احتفاظهم فى نفس الوقت بسعادتهم ، لرأيت عظم ما تنسبه لى من الفضل حين تظن أن باستطاعتى أنا أن أضع أمامهم حشداً من الأفكار — التى يعوزها الدفء ويعوزها الجمال — فأقضى على ما هم فيه من مرح واستمتاع . ما من شىء أمكنه فعل ذلك ، لقد جُرِّبت جميع الوسائل فباءت بالفشل وعلى ذلك أرجو ألا تشغل بالك بالأمر .

سلسلة الفكر الحديث

تصدرها

لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤

٩ شارع الكرداسي ، عابدين
تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

الكتب التي ظهرت

الكتاب القادم

قصة الحضارة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر